الموضوعية وجودها وحدودها
في الدراسات الإسلامية لدى المستشرقين

السيد رزق الحجر(*)

١. مقدمة

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، والصلاة والسلام على من أمره ربه: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾. ﷺ وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديهم وتبعهم بأحسان إلى يوم الدين.

وبعد،،،

فأن عناية الغربيين بدراسة الإسلام – عقيدة وشريعة ولغة وحضارة وتاريخا قد بدأت منذ أمد بعيد يعتد فى الماضى إلى حوالى ألف عام. وقد عُرفت مجموعات العلماء والباحثين الذين تخصصوا فى هذه الدراسة باسم "المستشرقين" كما أطلق على العمل الذى اضطلعوا به فى هذا السبيل اسم "الاستشراق" ويراد به التخصص فى دراسة الشرق: دياناته ولغاته وعاداته وتقاليده وآدابه وتاريخه وجغرافيته وكل ما ينتمى إلى حضاراته، وان كان التوسع فى مفهوم الاستشراق على هذا النحو قد تم فى فترة متأخرة عن تلك التى شهدت بدايته اذ أن بدايته كانت فى الأصل متجهة إلى دراسة الإسلام ومصدره ونبيه ﷺ، كما كانت متجهة كذلك إلى دراسة لغة القرآن الكريم، اللغة العربية وآدابها.

وليس من هدف هذا البحث التوقف طويلا عند التاريخ للاستشراق كظاهرة لها بواعثها وأهدافها ورجالها ووسائلها، فتلك مسائل قد استغرقت الكثير عن أعمال الباحثين، وكتب فيها ما لا حاجة لنا بعده إلى مزيد، إنما الهدف الأساسى هنا هو تتبع كتابات المستشرقين وبحوثهم

(*).أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة.

فى محاولة لتبين ما إذا كانت هذه البحوث تلتزم – حقيقة – طريق لدراسة الموضوعية الذى كثيرا ما أعلن المستشرقين التزامهم به، أو أنها تتخلى عن هذا الطريق كلية أو فى معظم الأحوال، أو فى بعضها.

ولسنا نطمح – بل ولا نستطيع – فى هذا البحث أن نعرض على ميزان الموضوعية العلمية كل كتابات المستشرقين، لكنا سنحاول أن نتناول بالتحليل والمقارنه نماذج مما خلفه هؤلاء خلال التاريخ الطويل للحركة الاستشراقية، لا سيما تلك النماذج التى يمتدح بعض الباحثين من المسلمين أصحابها ويستشهدون بهم على توفر الموضوعية والروح العلمية فى النتاج الاستشراقى.

أما تناول كل أوجل كتابات المستشرقين ومحاكمتها بحاكم الموضوعية فإنه أمر – مع ضرورته الملحة للمسلمين – لا يستطيع النهوض له فرد أو بضعة أفراد، ولا يمكن الوفاء به إلا إذا نهضت له مؤسسات علميه – وهى كثيرة فى عالمنا الإسلامى – يتقاسم أعضاؤها من المتخصصين – أشخاص المستشرقين ويتخصص كل منهم فى عدد من هؤلاء أو فى فترة زمنيه محددة من تاريخ الاستشراق يحصى نتاجها ويعكف عليه تحليلا ونقدا وتقييما، وبدون ذلك سوف تظل البحوث التى تتخذ الاستشراق موضوعها لها مجرد محاولات فردية لا غاية لها ولا ضابط، وقد تسقط فى النهاية فى نفس المزالق التى تعاب على المستشرقين وفى مقدمتها التعميم والتكرار والتناقض والحماس الذى قد يجنب صاحبه طريق الحق.

ولقد حدد هذا البحث لنفسه موضوعا واحدا من موضوعات الاستشراق المتعدده والمتداخله كذلك، وهى البحث عن الموضوعية فى نتاج المستشرقين.

وحتى لا يضل البحث طريقه فى شعاب الاستشراق ودرويه الكثيرة فإنه سوف يضرب صفحا عن عدد كثير من الموضوعات التى تدخل فى نطاق الاستشراق فلن يتعرض – مثلا – لتحليل أسباب هذه الظاهره وبواعثها، ولن يقصد إلى بيان وسائلها وغاياتها وأهدافها، ولن يستطرد كذلك فى تراجم رجالها، وفوق ذلك لن يجعل ضمن أهدافه الأساسيه ابراز الردود التى تكشف زيف الصورة التى رسخها المستشرقون عن الإسلام فى وجدان الرجل الأوروبى عبر أجيال طويلة. والبحث اذ يُخرج من خطته هذه الموضوعات فإنه لا يفعل ذلك عن اعتقاد بعدم أهميتها، وإنما لأن باحثين أجلاء – من جهة – نهضوا لها وكشفوا الكثير من معالمها وأن كانوا –

فى جملتهم – قد تناولوها مجتمعه برغم استحقاق كل منها لدراسة مستقلة به، وحرصا منه – من جهة ثانية – على أن يظل جهده متحركا داخل الاطار الذى رسمه لنفسه وهو التعرف على أبرز خصائص الفكر الاستشراق فى هذه المرحلة، والكشف عن آثارها الخطيرة فى المراحل التالية إلى يومنا هذا، ثم العثور على جواب صحيح لهذا السؤال: هل كان رجال الاستشراق فى دراساتهم للإسلام ومصدره ورسوله وتاريخه... الخ ملتزمين طريق الموضوعية العلمية؟

وسوف تقتضينا محاولة الجواب على هذا السؤال تقسيم البحث – تمشيا مع الادوار – التى مر بها الاستشراق – بعد التمهيد التالى لهذه المقدمه إلى أربعة مباحث، أولها بعنوان "الموضوعية والاستشراق فى طوره الأول".

وهذا المبحث محاولة للإجابة على السؤال السابق منذ ظهر الاستشراق عمليا وحتى نهاية ما عرف فى التاريخ الأوروبى باسم العصور الوسطى. ونظرا لطول الفتره التى يتناولها هذا المبحث، ولاشتمالها على الكثير من الركائز والمعطيات التى برزت فى الفترات التى أعقبتها، حتى أنه يمكن رد الكثير من الدعاوى والسمات التى ظهرت فيما بعد فى الاستشراق إلى معطيات هذه الفترة وخلفياتها الدينية والاجتماعية – أقول نظرا لذلك فإن هذا المبحث سوف يستغرق القسم الأول من هذه الدراسه.

وثانى هذه المباحث سيعرض – تحت عنوان "حدود الموضوعية ومغزاها فى الدراسات الاستشراقية منذ النهضة الاوروبيه – نفس السؤال السابق على الدراسات الاستشراقية التى خلفها مفكروا عصر النهضة وما تلاه من عصور إلى نهاية القرن الثامن عشر. أما موضوع المبحث الثالث فهو "موضوعية المستشرقين فى القرنين الاخيرين" وأخيرا يأتى المبحث الرابع كتطبيق وبرهان على صحة الأحكام الحقائق التى توصل إليها البحث تحت عنوان "المستشرقون والفكر الإسلامى" ويقصد هذا المبحث إلى تبين موقف المستشرقين على اختلاف عصورهم فى جانب من الجوانب الإسلاميه التى تناولوها فى بحوثهم وهو جانب الثقافة الإسلامية أو الفكر الإسلامى.

هذا ولا يغيب عن بالنا أن النظرة إلى الاستشراق مقسما إلى مراحل على النحو الذى سبق فيها شيئ من التجاوز لأن طبيعة الاستشراق – كطبيعة كل حركة فكرية – لا تخضع أطوارها لتحديد زمنى حاسم، وفى مثل هذا الحال يكون التحديد الزمنى قائما على أساس السمة الغالبة التى يتميز بها عن غيره كل طور من هذه الأطوار.

٢. تمهيد: المسلمون ودراساتهم للاستشراق

لعله من المناسب أن نشير – بين يدى موضوعنا – بإيجاز إلى طبيعة الدراسات الإسلامية التى تناولت موضوع الاستشراق وما قد يكون فى بعضها من قصور من وجهة نظرنا.

وفى هذا المقام يجب علينا أن نعترف أن الخطة التى يسير عليها المسلمون المهتمون بدراسة موضوع الاستشراق لم تحاول بعد أن تقترب من تلك الخطة التى على أساسها كان هذا النتاج الغزير للمستشرقين. ولا يقصد بذلك أن خطة المسلمين فى دراساتهم يعوزها المنهج السليم للبحث أو تنقصها وسائله أو أدواته كما قد تصور ذلك البعض، وإنما المراد هنا أن هذا الكم الضخم من النتاج الاستشراقى قد تحصَّل نتيجة تعاون وثيق بين هيئات متعدده تضم داخلها مجموع المستشرقين فى شتى البلاد الأوروبيه، وهذه الهيئات غالبا ما ترسم لهؤلاء الباحثين خطة يسيرون وفقها وأهدافا يسعون لتحقيقها بحيث لا يتضارب نتاجهم ولا يتكرر، فهذا مستشرق أو مجموعة من المستشرقين تخصصوا فى الدراسات القرآنية، وهذا فريق آخر ركز جهوده فى دراسة السنة النبوية، وفريق ثالث تخصص فى التاريخ الإسلامى أو الحضارة أو اللغة أو التصوف ٠٠ الخ وفضلا عن ذلك عملت هذه الهيئات على توفير الدعم المادى والأدبى وكل ما يسهل سبيل البحث للمستشرقين وهذا فى الحقيقة هو الفارق الأساسى بين الظروف التى فى ظلها يعمل المستشرقون والظرف التى تحيط بدراسة الحركة الاستشراقية ونتاجها لدى المسلمين حيث أنه لا يبعد كثيرا عن الصواب وصف دراسات المسلمين لهذا الموضوع بأنها حتى الآن محاولات فردية لا تسير وفق ضوابط محددة ولا تتجه لغاية متفق عليها. وهو الأمر الذى يعرضها فى بعض الحالات لنفس المآخذ التى تؤخذ على الكثير من المستشرقين، وفى مقدمتها التعميم والتكرار والتضارب والتعبير الانفعالي الحماسى، وكلها أمور قد تبعد بالبحث عن طريق الحقيقه، وتفقده القدرة على الاقناع.

والواقع الذى يبدو جليا لكل من يطالع ما كتبه المسلمون حول موضوع الاستشراق أن معظم كتاباتهم تتوزع بين اتجاهين متباعدين:

أحدهما: اتجاه معجب بالاستشراق، مفرط فى الثقة بالمستشرقين والثناء عليهم والتمجيد المطلق لجهودهم، ويعتبر الدكتور طه حسين فى طليعة أصحاب هذا الاتجاه "حيث يقول فى مقدمة كتابه "الأدب الجاهلى": وكيف تتصور استاذا للأدب العربى لا يلم ولا ينتظر أن يلم بما انتهى إليه الفرنج (المستشرقون) من النتائج العلمية المختلفة حين درسوا، تاريخ الشرق وأدبه

ولغاته المختلفة، وإنما يلتمس العلم الآن عند هؤلاء الناس، ولابد من التماسه عندهم حتى يتاح لنا أن ننهض على أقدامنا ونطير بأجنحتنا ونسترد ما غلبنا عليه هؤلاء الناس من علومنا وتاريخنا وآدابنا.."(١).

وأخطر من ذلك دلالة على الثقة المفرطة بنماذج الحياة والتفكير الغربيين ما ذكره طه حسين فى كتابه "مستقبل الثقافة فى مصر" إذ يلح فيه على أننا إذا كنا نريد الاستقلال العقلى والنفسى، الذى لا يكون الا بالاستقلال العلمى والأدبى والفنى، فلا بد لنا من تحصيل وسائله ولا يمكننا ذلك الا بأن نتعلم كما يتعلم الأوروبى وأن نشعر "كما يشعر الأوروبى، ولنحكم كما يحكم الأوروبى، ثم لنعمل كما يعمل الأوروبى، ونصرف الحياة كما يصرفها"(٢) وهكذا يصبح التجديد فى الفكر الإسلامى الحديث فى رقعة الشرق الأدنى – من وجهة نظر الأستاذ الدكتور طه حسين – "محاولة لا احتياط فيها لمتابعة التفكير الأوروبى، فى اتجاهه، وفى أحكامه، وفيما فصل فيه من مشاكل الحياة وفى مدارسه." (٣).

وإذا أردنا نموذجا واحدا – حتى لا نطيل فى هذا المقام – لهذه المتباعة المطلقة لأساليب التفكير الغربى فى فكر الدكتور / طه حسين فسوف نجده فى المقارنه بين كلامه عن النبى وعن القرآن الكريم وكلام المستشرق الانجليزى "جب" فى ذات الموضوع، فالأول يصرح فى ذلك بأنه "ليس من اليسير، بل ليس من الممكن أن نصدق أن القرآن كان جديدا كله على العرب، فلو كان كذلك لما فهموه ولما دعوه، ولا آمن به بعضهم، ولا ناهضه وجادل فيه بعضهم الآخر، وفى القرآن رد على الوثنين فيما كانوا يعتقدون من وثنية وفيه رد على اليهود، وفيه رد على الصابئه والمجوس، وهو لا يرد على يهود فلسطين ولا على نصارى الروم ومجوس الفرس وصابئة الجزيرة وحدهم.. وإنما يرد على فرق من الغرب كانت تمثلهم فى البلاد العربية نفسها، ولولا ذلك لما كانت له قيمة ولا خطر ولما حفل به أحد من أولئك الذين عارضوه وأيدوه" (٤) وهكذا يستمر الدكتور طه حسين فى عرض تصوره الذى ينتهى إلى ما يفيد أن القرآن الكريم "دين محلى" لا

---

(١) نقلا عن الدكتور – مصطفى السباعى – الاستشراق المستشرقون الطبعة الثالثه ، المكتب الإسلامى سنة ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م ص ٧ ، ٨ .

(٢) انظر الدكتور / محمد البهى : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص١٥٧-١٦٣ .

(٣) السابق ص١٦٣ .

(٤) السابق ص١٨٦ .

أنسانى عالمى، قيمته وخطره فى هذه المحلية وحدها، قال به صاحبه متأثرا بحياته التى عاشها وعاش فيها، ولذلك يعبر تعبيرا صادقا عن هذه الحياة أما أنه يمثل غير الحياة العربية. أو يرسم هدفا عاما للإنسانية فى ذاتها، فليس ذلك بحق[١] " وتلك هى نفس الفكرة التى عبر عنها المستشرق الانجليزى "جب" فى كتابه "المذهب المحمدى" حين قال: "ان محمدا ككل شخصية مبدعة قد تأثر بضرورات الظروف الخارجية (عنه) المحيطة به من جهة. ثم هو من جهة أخرى قد شق طريقا بين الأفكار والعقائد السائدة فى زمانه والدائرة فى المكان الذى نشأ فيه[٢]" وكذلك حين قال: "وانطباع هذا الماضى المتاز (لمكه) يمكن أن نقف على أثره واضحا فى كل أدوار حياة محمد.. وبتعبير انسانى: أن محمدًا نجح لأنه كان واحدا من المكيين"، "وواضح من دعوة محمد الصارخة إلى مكافحة الظلم الاجتماعى أن هذه الناحية كانت سببا من الأسباب العميقة لثورته الداخلية (النفسية).." [٣].

وينتهى "جب" من أفكاره تلك إلى تزيين القول بأن القرآن هو تعبير عن محمد صادر منه[٤].

فالمشابهة هنا واضحة بين أفكار الكاتبين العربى المسلم والانجليزى، ولم يكن القصد من الإشارة إلى ذلك سوى بيان نموذج للاتجاه المناصر والمتابع للاستشراق على طول الطريق والذى يمكن أن نعد من رجاله كذلك الاستاذ / أحمد أمين والأستاذ الدكتور على حسن عبد القادر[٥].

الاتجاه الثانى: ويقف ضد الاستشراق والمستشرقين على طول الطريق، فلا يرى فى الاستشراق الا حربا شنها الغرب النصرانى على الإسلام والمسلمين جزاء ما جاهد هؤلاء لرفع راية الإسلام على ربوع الأرض وما أتاحوا للضالين والحيارى والمظلومين من إيمان وهدايه وعدالة، وقد كان بين هؤلاء شعوب لم ينسى الغرب ابدا أنها كانت من رعايا الكنسية.

وأصحاب هذا الاتجاه يعجزون فى بعض الحالات – برغم أنهم الاكثرون وأنهم يتبنون فى الأغلب موقفا صحيحا – يعجزون عن اقناع القارئ بما يسعون لاحقاقه، أما لأنهم يصطنعون

---

(١) السابق ص١٨٧ .

(٢) السابق ص ١٧٨ .

(٣) السابق ص١٧٩ .

(٤) انظر الأستاذ / طيباوى : المستشرقون الناطقون بالانجليزية ، ملحق بكتاب الدكتور البهى السابق ص٤٨٤ .

(٥) انظر د. مصطفى السباعى – الاستشراق والمستشرقون ص ٨ .

لغة خطابية وعظية تستطيع إشارة المشاعر وتحريك العواطف أكثر مما تستوقف العقول وتثير فيها التأمل والتدبر، وأما لأنهم يطلقون أحكاما قد تكون صحيحة فى ذاتها لكنها يعوزها الدليل، وفى الحالتين تفقد بحوثهم الكثير من آثارها المرجوة.

وإذا كنا لا نريد أن نتعرض فى بحثنا الاشخاص بأعيانهم فقد نقع بسبب الحرص على هذه الرغبة فيما نؤاخذ غيرنا عليه اذ سيبقى ما قلناه هنا مجرد أحكام لا دليل عليها، فلا مفر لنا أذن من سوق بعض الأمثلة التى تبرهن على صحة هذه الأحكام فالتعميم والخطابية معا يظهران فى مثل قول القائل: "وجمهرة المستشرقين مستأجرون لاهانة الإسلام وتشويه محاسنه والافتراء عليه"(١) وكذلك فى قول القائل: "ومهما اختلفت نحل المستشرقين واتجاهاتهم فهم يهدفون جميعا إلى هدف واحد وهو الإسلام والاجهاز عليه، والمستشرقون جميعا يتفقون فى عدائهم للإسلام مع تجاهلهم لحقيقته، والمستشرق جبل على الطعن فى الإسلام بحسب تفكيره العدائى الموروث منذ عصر الحروب الصليبية، والساكت منهم على المفتريات الموجهة إلى الإسلام والطعن فيه أشد سوءا من غيره لأن فى سكوته اقرارا لصحة ما يزعمه الأخرون، اذ الساكت على الحق شيطان أخرس(٢) "فاطلاق هذه الاوصاف على جميع المستشرقون ان صح بالنسبة لمرحلة من مراحل الاستشراق لا يصح بالنسبة لكل مراحله وأن صح بالنسبة لبعض المستشرقين لا يصح بالنسبة لهم جميعا، فاطلاق الحكم اذن على هذا النحو ليس الا من قبيل الخطابية الخاليه من أى مضمون؟ وإذا قرأ القارئ مثل هذا الكلام ثم قرأ معه قول أحد المستشرقين: "ان محمدا ﷺ، كان مسئولا عن العقيدة الإسلامية ومبادئها الرئيسية الأدبية والأخلاقية، وبالإضافة إلى ذلك فقد لعب دورا قياديا فى الهدى للدين الجديد وتأسيس الفروض الدينية فى الإسلام، وهو الذى أنزل عليه القرآن (الكتاب الإسلامى المقدس) وهو مجموعة من الآيات ذات البصيرة النافذة التى أوحيت إليه مباشرة من قبل الله. ومعظم هذه الأقوال دونت وسجلت خلال حياة محمد ﷺ ثم انها جمعت بشكل رسمى موثوق به بعد وفاته بفتره وجيزه، ولذلك فأن القرآن يمثل الأفكار

---

(١) د. عدنان وزان : الاستشراق والمستشرقون .. العدد رقم "٢٤" من سلسلة "دعوة الحق" التى تصدر عن رابطة العالم الإسلامى ص١٩ والمؤلف ينقل هنا عن فضيلة الشيخ محمد الغزالى من كتابه "دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين" .

(٢) السابق ص١٨ .

والتعاليم التى أوحاها الله للرسول ﷺ [١] أو قول مستشرق آخر يقرر فيه تشديد الإسلام فى حث أتباعه على انتهاج أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة فى الدعوة لهذا الدين وتجنب أساليب العنف والقسوة فى ذلك على عكس ما شاع لدى الغربيين [٢] ويستشهد فى موضع آخر على عالمية الدين الإسلامى فيجمع الكثير من الآيات القرآنية التى تفيد هذا المعنى [٣] أو قول ثالث ينفى عن النبى ﷺ ما زعمه الكثيرون من المستشرقين من أنه ﷺ كان يصاب بنوبات صرع، فيرد هذا المستشرق ذلك قائلا: "وكانت مهمة محمد ﷺ هائلة، كانت مهمة ليس فى ميسور دجال تحدوه دوافع أنانيه (وهو الوصف الذى رمى به بعض الكتاب الغربيين المبكرين الرسول العربى) أن يرجو النجاح فى تحقيقها بمجهوده الشخصى، والزعم القائل بأن فترات تلقيه الوحى كانت فى الواقع نوبات صرع، خاطئ على نحو جلى، ذلك بان من يتعرض لمثل هذه النوبات لا يمكن ان يكون مالكا وعيه ومنطقه إلى حد القدرة على النطق بمثل المقاطع المعقدة والعميقة، من وجهة النظر الفكرية، التى تقع على كثير منها فى القرآن (الكريم)" [٤].

ويستمر هذا المستشرق فى دفع تهمة الصرع عن نبى الإسلام ﷺ فيقول: "أن الأخلاص الذى تكشف عنه محمد فى أداء رسالته، وما كان لاتباعه من ايمان كامل فيما أنزل عليه من وحى، واختبار الاجيال والقرون، كل أولئك يجعل من غير المعقول اتهام محمد بأيما ضرب من الخداع المتعمد، ولم يعرف التاريخ قط أى تلفيق دينى متعمد – حتى ولو كان صاحبه دجالا عبقريا – استطاع أن يعمر طويلا، والإسلام لم يعمر حتى الان ما ينوف على ألف وثلاثمائة سنه وحسب، بل انه لا يزال يكتسب فى كل عام اتباعا جددا، وصفحات التاريخ لا تقدم الينا مثالا واحدا على محتال كان لرسالته الفضل فى خلق امبراطورية من امبراطوريات العالم وحضارة من أكثر الحضارات نبلا" [٥].

---

(١) د. مايكل هارت : المائة الأوائل بترجمة خالد أسعد عيسى وأحمد غمان سبانو ، دار قتيبه ، الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٤هـ ص ٢٣ .

(٢) انظر توماس ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ترجمة د٠ حسن إبراهيم حسن ، د٠ عبد المجيد عابدين . طبع النهضه المصرية سنة ١٩٧٠م ص٢٩ .

(٣) السابق ص٤٨ وما بعدها .

(٤) روم لاندو : الإسلام والعرب ، ترجمة منير البعلبكى ، الطبعة الثانية ، بيروت سنة ١٩٧٧م ص ٣٣ .

(٥) السابق ص٣٣ ، ٣٤ .

ولسنا نريد فى هذا المدخل أن نطيل بذكر هذه الأمثلة، فسوف يأتى الحديث المفصل عنها فى موضعه، لكن القصد من الإشارة إليها إنما هو فحسب بيان ما يمكن أن يتعرض له القارئ – ونقصد القارئ غير المتخصص فى هذا المجال – من حيرة وتشكك عندما يقرأ مثل هذا الكلام مقرونا إلى ما أشرنا إليه من قبل لبعض الكتاب المسلمين الذين يطلقون الوصف على جميع المستشرقين بأنهم – جميعهم – مجبولون على الطعن فى الإسلام، أو مستأجرون لاهانة الإسلام، أو متفقون جميعا على عدائهم للإسلام إلى آخر مثل هذه الاحكام العامة التى لا يصح للباحث اطلاقها – إذا أراد أن يكون محقا – إلا بعد عملية استقراء كاملة لجميع المستشرقين وأعمالهم دون أن يهمل منهم واحدا، ولا نعتقد أن مثل هذا العمل قد نهض له أى فرد أو مجموعة من الباحثين المسلمين حتى الآن، حتى لو تم مثل هذا العمل الاستقرائى الكامل فأن الحكم العام أو الكلى يبقى – مع ذلك – معرضا للنقض أو النقض بحالة واحده قد تظهر مخالفة له.

وإذا كانت الأحكام العامة التى يطلقها بعض الكتاب المسلمين دون أن يدعموها بالأدلة التى تقنع القارئ بصحتها مما يضر بالحقيقة فإن التضارب فى الأحكام بين بعض هؤلاء يعتبر هو الآخر عقبة تقف فى طريق الوصول إلى الحقيقه، وهى عقبة تدع القارئ فى حيرة بين هذه الأحكام المتعارضة.

وأمثلة هذا التعارض متعددة فى كتابات المسلمين، فعلى سبيل المثال نرى بعض هذه الكتابات تقدم بعض المستشرقين كأمثلة بارزة للتعصب والحقد على الإسلام والمسلمين بينما نرى فى هؤلاء المستشرقين أنفسهم – فى بحوث أخرى – أمثلة للمستشرقين الموضوعيين المتجردين الذين لا يهدفون الا لكشف الحقيقة الخالصة. ولنأخذ "ماسينيون" كمثال لهذه الظاهرة – ظاهرة الأحكام المتضاربه فى الدراسات الإسلامية – فهو فى نظر البعض – كالعلامة الكبير الدكتور محمد البهى، مثلا – مصنف تحت عنوان "المتطرفون من المستشرقين" وهو "مستشار وزارة المستعمرات الفرنسية فى شئون شمال أفريقيا، والراعى الروحى للجمعيات التبشيرية الفرنسية فى مصر"(١) وهذه الصفات والاعمال تجعل هذا المستشرق فى نظر القارئ –

---

(١) د. محمد البهى : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ، الطبعة العاشرة ، مكتبة وهبه بمصر ص٤٥٠ .

بحق – قريب الشبه إلى حد كبير بمستشرقى العصور الوسطى الذين جمعوا بين الاستشراق والتبشير تحقيقا لاهداف الكنسيه.

وبينما نرى "ماسينيون" هنا بهذه الصوره، نراه عند باحث آخر من المسلمين هو الأستاذ / الدكتور محمد غلاب فى صورة مخالفه تماما اذ يعد عنده ضمن "المستشرقين المتواضعين العارفين قدر أنفسهم والذين يمثلون العلماء الحقيقين "بل أنه يعتبر فى نظره من الباحثين النموذجين كما يوضح ذلك قوله "ومن هؤلاء الباحثين النموذجين الاستاذان المعاصران لويس ماسينيون ولويس جارديه"(١).

و"لويس ماسينيون" حين يصف القرآن الكريم بأنه "نظام عالمى واقعى موحى.." يعتبر – فى رأى الأستاذ الدكتور غلاب – ضمن بعض ادقاء المستشرقين من نزهائهم المخلصين(٢) "مع أن النص الذى أورده لماسينيون وتضمن الأوصاف السابقة للقرآن الكريم لا يعبر عن رأى "ماسينيون" ذاته وإنما يعبر عن وجهه نظر المؤمنين به كما صرح هو بذلك، فالقرآن – كما يقول "نظام عالمى واقعى موحى، فهو ينظم تطبيق كل حادثة من أحداث الوجود وشرحها وتقديرها أنه – بالنسبة إلى جميع المؤمنين – بمثابة ذاكره قد أعدت أتم الاعداد.. والقرآن هو الذى يقوم بدور تبسيط مشكلة منهج الحياة أمام المؤمنين"(٣).

وحتى "جولدزيهر" الذى اشتهر بعدائه الشديد للإسلام نراه محل اختلاف بين بعض الباحثين المسلمين، فهو عند الكثيرين(٤) من أشد المستشرقين عداء للإسلام وقد دأب هو و"مرجليوث" وغيرهما "فى مؤلفاتهم ودراساتهم المسمومة عن الإسلام.. على الزعم بأن القرآن من كلام محمد وأنه بدل فيه وغير تمشيا مع ظروف دعوته واختلاف أحواله وبيئته(٥) " والوحى الألهى للرسول الكريم – فى نظر جولدزيهر – مرده إلى مصدرين: خارجى وداخلى كما يوضح ذلك قوله: "فتبشير النبى العربى ليس الا مزيجا منتخبا من معارف وآراء دينيه عرفها بفعل

---

(١) د٠ محمد غلاب : نظرات استشراقيه فى الإسلام طبعه دار الكاتب .

(٢) السابق ص٣٠ .

(٣) السابق ص ٣١ .

(٤) من أمثال الشيخ أبى زهره والشيخ محمد الغزالى ، والدكتور البهى وغيرهم .

(٥) أحمد محمد جمال : مفتريات على الإسلام الطبعة الرابعة ، رابطة العالم الإسلامى سنة ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م ص٢٤ .

اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية التى تأثر بها تأثرا عميقا والتى رآها جديرة بأن توقظ فى بنى وطنه عاطفة دينية صادقة، وهذه التعاليم التى أخذها عن تلك العناصر الاجنبية كانت فى وجدانه ضرورية لاقرار لون من الحياة فى اتجاه يريده الله. لقد تأثر بهذه الأفكار تأثرا وصل على أعماق نفسه وأدركها بايجاء قوة التأثيرات الخارجية فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحيا الهيا"[1] لكن جولدزيهر – مع ذلك – يدخل – فى نظر أحد الباحثين[2] – ضمن أولئك المستشرقين "الادقاء الذين اتسعت ثقافتهم وغزر اطلاعهم وعكفوا على الدراسة والتحليل فى شيء غير يسير من الاخلاص للعلم والتوافر على البحث قاصدين وجه المعرفة وحده لا التعصب ولا التحيز، فإذا ما ضلوا سواء السبيل وانحرفوا عن جادة الصواب كان ذلك من جانبهم غفلة أو جهلا ولم يكونوا فيه باغين ولا عادين ثم فلا اثم عليهم، بل لا لوم ولا تثريب[3]. "ولقد اعتمد هذا المفكر الجليل فى حكمه هذا على ما قدمه جولدزيهر من دراسات حول التصوف الإسلامى "فقد خصص للتصوف دراستين هامتين جديرتين بالتقدير فضلا على ذلك الفصل القيم الذى عنى فيه بدراسة التصوف والزهد من كتابه"[4] رغم ان هذا الباحث الكبير قد نبهنا فى نفس هذا الموضع على الدوافع التى حدت بالمستشرقين إلى العناية بالتصوف الإسلامى وأنها دوافع لا صلة لها بالموضوعية والامانة العلمية اذ كانت أولى نظراتهم فيه أو أول أهدافهم من بحوثهم حول هذا لموضوع – كما يقول – "هى محاولة اثبات ارتباطه بغيره من تصوفات الاديان الأخرى السابقة على الإسلام كالمسيحية أو المجوسية أو المانوية او البوذيه أو المذاهب الهندية القديمة، والتدليل على أنه مأخوذ منها أو متأثر بها إلى حد يفقده ذاتيه ويبعد به قدر المستطاع عن الكتاب والسنه الإسلاميين[5] "أقول أنه بالرغم من تنبيه باحثنا إلى حقيقة البواعث التى دفعت جولدزيهر" – وكثيرين غيره – إلى العناية بدراسة التصوف الإسلامى مع تأكيده على أن هذه البواعث مقطوعه الصلة تماما عن التجرد والامانة العلمية،

---

(١) نقلا عن مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية ط المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم جـ١ من مقال للدكتور التهامى نقره بعنوان : القرآن والمستشرقون ص٣١ .

(٢) هو الأستاذ الجليل الدكتور محمد غلاب .

(٣) د٠ محمد غلاب . نظرات استشراقيه فى الإسلام ص٢١ .

(٤) السابق ص ٢٣ .

(٥) السابق ص ٢٢ .

كما يدل على ذلك كلامه هنا – فقد رأى فى "جولدزيهر" رأيا مخالفا لما عليه الاكثرون من المسلمين وأبدى اعجابه الكبير بحديث "جولدزيهر" و"ماسينيون" والمستشرق الهولندى" سنوك هورخروفيه" عن التصوف الإسلامى ويقولهم أن التصوف قد جعل الإسلام دينا دوليا وعاما. وها هو يعلق على نصوصهم التى تضمنت هذا المعنى بقوله "ولا ريب أن فى هذا التصريح برفعة الإسلام ودوليته واشتماله على التوحيد الطبيعى للبشرية، شهادة من جانب أولئك المستشرقين الأعلام تقطع قول كل خطيب "كما أنها شهادة لهم أنفسهم بالنزاهة والبراءة من التعصب كفيلة باسكات المتحاملين الذين يدفعهم التعصب وضيق الأفق إلى الطعن على كل الاستشراق.. لسنا ندرى ما منشأ هذا الحنق على أولئك الأعلام النزهاء دون برهان ولا دليل، بل دون أدنى مسوغ يستندون إليه، اللهم الا أن يكن هو التظاهر بالدفاع عن الإسلام بحق وبغير حق "(١).

ولا نريد أن نعلق على هذه الحملة الكبيرة – التى لم نشأ أن نسردها بتمامها – على كل من رموا هؤلاء المذكورين بالتعصب الا ببعض الأسئلة نتوجه بها إلى الأستاذ الدكتور غلاب وهى:

هل كان الإسلام حقا بحاجة – لإثبات عالميته أو دوليته – إلى شهادة هؤلاء الإعلام النزهاء كما يصفهم؟ هل اكتسب الإسلام صفة العالمية والدولية بفضل التصوف كما يقولون؟ وإذا سلمنا جدلا أن التصوف له على الإسلام هذا الفضل الكبير، أفلا يدفع ذلك إلى الوقوع فيما أراد هؤلاء المستشرقون استدراجنا إلى التسليم به، وهو الاقرار بأن عالمية الإسلام قد تحققت له من عوامل خارجة عنه لا من طبيعته الذاتيه؟ وبيان ذلك ليس بالأمر العسير، فهؤلاء المستشرقون قد اتفقوا على أن التصوف هو الذى اكسب الإسلام صفة العالمية، وهم كذلك قد اتفقوا – كما كشفت عن ذلك دراساتهم للتصوف الإسلامى، وكما قرر ذلك الأستاذ الدكتور "غلاب" نفسه – على رد التصوف فى وجوده إلى مصادر خارجة عن الإسلام "كالمسيحية أو المجوسية أو المانوية أو البوذية أو المذاهب الهندية القديمة، والتدليل على أنه مأخوذ منها أو متأثر بها إلى حد يفقده ذاتيته ويبعد به قدر المستطاع عن الكتاب والسنه الإسلاميين.. (٢)

---

(١) السابق ص ١٩ .

(٢) السابق ص ٢٢ .

فإذا كان التصوف هو الذى منح الإسلام صفة العالمية، وكان هذا مستمدا من مصادر خارجة عن الإسلام غريبة عنه، فإن ذلك يؤدى منطقيا – إلى التسليم بأن صفة العالمية لم تكن أصيلة فى طبيعة الإسلام ولا نابعة من ذاته، ولا نظن اطلاقا ان باحثنا يسلم بهذه النتيجه.

وأخيرًا، فهل كان المستشرق الهولندى سنوك هرجرونيه "حقا من أولئك الإعلام النزهاء البراء من التعصب كما يقول؟ وما رأى استاذنا فى وصف باحث آخر له بأنه كان سندا للاستعمار الهولندى فى بلاد المسلمين وبأنه أنكر" ولج فى انكار الدور السياسى للقرآن والسنه، لأن خطته الكبرى كانت تدور على ربط المستعمرات الهولندية فى "اندونيسيا" بروابط ثقافية (اوروبية) بهولندا، فتسلب هذه الوحده كل خلاف دينى من أهميته السياسية والاجتماعية، وقصد "سنوك هورخورنيه" ابدال الإسلام بثقافة أوروبية[(١)] وعندها تسهل التبعية السياسية والدينية [(٢)] " وتلك هى الحقيقة التى قررها حتى بعض اتباع هذا المستشرق من المستشرقين الهولنديين، وهذا أحدهم (فرانك شرودر) يقول: "حتى لو اعترفنا أن "سنوك هورخوونيه" كان يكن الاحترام للإسلام فإن سياسته الإسلامية كانت تعنى رفض محتوى الإسلام السياسى وابداله كما أراد "سنوك هورخرونيه" بقوانين العادات، كما جاء فى تقرير "آجى" المشهور "السيء الصيت الذى قدمه "سنوك" للحكومة الهولندية للتبرير الخلقى للحرب الدموية" وهى الحرب التى ذهب ضحيتها مائة ألف أو يزيد من سكان اقليم "آجى" وكان هدفها احتلال "هولندا" لهذا الاقليم، لأن احتلاله – كما جاء فى تقرير "سنوك خرونيه" – سوف يزيل من الوسط الإسلامى كراهية كل شيء غير اسلامى، ومن ثم فإن سكانه سوف يقبلون بما يملى عليهم من المفاهيم الأوروبية التى ترفع من شأنهم، لأن العقيدة الإسلامية تحث على كراهية الكافر لتعصبها"[(٣)].

---

(١) يقصد الكاتب احلال الثقافة الأوروبية محل الإسلام وأن كانت عبارته لا تفيد هذا المعنى لأن الباء فى مثل هذا التركيب تدخل – كما يعرف علماء اللغة العربية – على المبدل منه أو المتروك .

(٢) د. قاسم السامرائى : الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية ، الطبعة الأولى ، منشورات دار الرفاعى سنة ١٣٠٣هـ / ١٩٨٣م ص١٠٩ .

(٣) السابق ص ١١١ .

أن الأمثلة على الأحكام المتضاربة لدى دارسى الاستشراق من المسلمين كثيرة، والاستطراد فى بيانها يبعد بالبحث عن الهدف المحدد له، لذلك نكتفى بما تقدم من نماذج، اذ سوف نقف فى المبحث الثانى من هذه الدراسة على الكثير منها، لكنا قبل أن نترك هذا الموضوع ينبغى أن نشير إلى السبب فى وجود مثل هذه الظواهر – التكرار، والتعميم، والتضارب فى الاحكام – فى دراسة المسلمين للاستشراق، وهى ظواهر تعاب على الكثيرين من المستشرقين فى دراساتهم الإسلامية كما سنرى ذلك فيما بعد.

لماذا يكون أحد المستشرقين فى نظر البعض منا محايدا نزيها ويكون هو نفسه فى نظر بعض آخر حاقدا متعصبا ضد الإسلام والمسلمين؟ ولماذا يطلق البعض منا حكمه على المستشرقين جميعهم بعدم الموضوعية والامانه العلمية، بينما يرى الآخرون – كما تثبت الدراسات الدقيقة – أن بعض المستشرقين يصدق عليه وصف الموضوعية والتجرد والنزاهة العلمية؟

ان سبب ذلك – فى تصورى – هو تقصير بعض الدراسات فى استقراء كل حيثيات الحكم الصحيح، فالبعض من باحثينا يكتفى بالوقوف على نتاج أو بعض نتاج عدد من المستشرقين المعروفين بالعداء للإسلام والمسلمين ثم ينطلق من ذلك إلى حكم عام عليهم جميعا بأنهم حاقدون ينفثون السموم ضد الإسلام والمسلمين. وعلى العكس من هؤلاء نرى البعض يقرأ نصا أو عدة نصوص لأحد المستشرقين أوحتى مقدمة كتاب لأحدهم فيقف فيها على أحكام حقيقية بالنسبة للإسلام أو القرآن أو الحضارة الإسلامية وآثارها فينطلق من هذه النصوص – على عجل – إلى وصف صاحبها بالنزاهة أو الدقة أو الموضوعية دون أن يفطن إلى أن جل دراسات هذا المستشرق قد تكون ناقضه لما وصفه به، ودون أن يكلف نفسه عناء الرجوع إلى مصادر هذه النصوص وقراءتها كاملة. والنتيجة أن الأحكام تأتى فى الحالتين منقوضه بما يخالفها.

وهكذا يقع التضارب بين الباحثين لأن بعضهم وقف على ما لم يقف عليه الآخرون وبعضهم قصر فى التعرف على ما كان لزاما عليه أن يعرف قبل إصدار حكمه، وكل ذلك مرجعه – إذا شئنا الصراحة – إلى التساهل وعدم الصبر على متطلبات البحث العلمى.

٣. القسم الأول: النتاج الاستشراقى فى العصور الوسطى

أ. ملامح النشاط الاستشراقى فى طوره الأول

أشرنا فى مقدمة هذا البحث إلى أن تقسيم الاستشراق إلى أطوار أو مراحل ينطوى على شيئ من التجاوز لأن طبيعة الاستشراق – كطبيعة أية حركة فكرية – لا يمكن اخضاع اطوارها للتحديد الزمنى الدقيق، وعلى ذلك فإن التحديد، الذى يرسمه هذا البحث للأدوار التى مر بها الاستشراق فى سيره التاريخى إنما يقوم على اساس السمات التى تغلب على كل دور منها والتى تمنحه نوعا من التميز عن غيره.

وفى الصفحات التاليه نتناول أول هذه الأطوار وأخطرها أثرا فى تاريخ الحركه الاستشراقية كلها إلى عصرنا هذا كما سنبين ذلك فيما بعد فنتعرف على سمات هذا الطور ومعالمه لنقف من ذلك على الخلفية أو الظروف التى فى ظلها تشكلت أول صوره عن الإسلام وأهله وهى الصورة التى استقرت فى أذهان الباحثين الغربيين الذين توجهوا إلى دراسة الإسلام وعن طريقهم ترسخت فى ذهن كل غربى فى شكل حقائق مسلمة لا تقبل النقض، وظلت آثارها منقوشه بشكل ظاهر كثيرا – أو قليلا – فى عقول الأوروبيين جيلا بعد جيل حتى أن البحوث والدراسات الموضوعية لم تقدر بعد – كما يقول "مونتجمرى وات" – على اجتثاثها كليا(١) ولنترك الخوض الآن فى تفاصيل هذه الصورة وظلالها لنتبين قبل ذلك معالم الاستشراق وسماته فى هذا الطور من تاريخه وهو الطور الذى يمتد من البداية العملية للنشاط الاستشراقى – على خلاف فى التحديد الزمنى لهذه البدايه – إلى نهاية ما يعرف فى التاريخ الأوروبى بالعصور الوسطى، وسواء كان القرن العاشر الميلادى هو بداية هذه الفترة – وهو بداية الحركة الاستشراقية عموما – أو كان القرن الحادى عشر أو الثانى عشر هو البداية الحقيقية لذلك(٢).

---

(١) انظر د٠ عرفان عبد الحميد : المستشرقون والإسلام ، الطبعة الثالثه ، المكتب الإسلامى سنة ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م ص٤ ، ٥ .

(٢) لمعرفة تفاصيل الخلاف فى ذلك انظر ، الدكتور مصطفى السباعى : الاستشراق والمستشرقون .. ص١٣ ، ١٤ والدكتور محمود زقزوق : الاستشراق والخلفيه الفكرية للصراع الحضارى : الطبعه الثانية ، مؤسسة الرسالة سنة ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م ص١٨ وما بعدها والدكتور قاسم السامرانى : الاستشراق بين الموضوعية والافتعاليه ص١٩ وما بعدها .

فإن الذى يعنينا بالدرجة الأولى هو نتاج تلك الفترة واستحقاقه أو عدم استحقاقه لصفة الموضوعية.

ولما كان التراث الاستشراقى نتاجا عقليا (أو يفترض أنه كذلك) كان مما يعيننا على استجلاء سماته وخصائصه أن نتعرف على طبيعة العقلية التى انتجته، اذ لا ينفك أى فكر فى سماته عن سمات العقول التى تولد عنها هذا الفكر، كما لا يستقل عن الروح التى عاصرت مولده.

ب. طبيعة العقلية الأوروبية فى العصور الوسطى:

يبرز فى عقلية الأوروبين فى العصور الوسطى عدد من الخصائص فى مقدمتها أنها عقلية ساذجه، وأن شئت فقل بدائيه، وليس هذا وصفا نخترعه لها من عند انفسنا، وإنما هو خلاصة دراسة فاحصة قام بها باحث أوروبى معاصر استحق أن يوصف فى مطالع الأربعينات من قرننا هذا بأنه "مؤرخ هولندا الشهير" وقد كشف هذا الباحث عن مظاهر تلك السذاجة والبدائية فى العقلية الأوروبية فى العصور الوسطى فيما تتسم به من ضعف، وسطحية فى التفكير، وميل إلى اصدار الاحكام العامة دون تردد، والوقوع فى الاحكام الخاطئة بشكل يتكرر كثيرا.

وهذا هو المؤرخ الهولندى المشار إليه "يوهان هويزنجا" يقرر تلك السمات للعقلية الأوروبية الوسيطه فيقول: "وكثيرا ما يبدو لنا أن عقلية العصور الوسطى المتدهوره تظهر من السطحيه والضعف مالا يصدقه عقل، فهى تتجاهل التركيب المركب للاشياء بطريقة مذهله حقا، وهى تنطلق إلى التعميمات بغير تردد معتمدة على دليل واحد، وتعرضها لاصدار الحكم الخاطئ بشكل مفرط، لا حد له. لذا فأن عدم الدقه وسرعة التصديق والطيش، وعدم الاتساق المنطقى من الملامح الشائعة فى الاستدلال العقلى فى العصور الوسطى، ولا شك أن هذه العيوب جميعا تكمن فى اعتمادها الجوهرى على "الصورية" فلتفسير موقف أو حادثه، يكفى دافع واحد وإذا كان هناك اختيار، وقع على أعم الدوافع، أو أشدها مباشرة، أو اغلظها[1].

---

(١) اضمحلال العصور الوسطى ، دراسة لنماذج الحياة والفكر والفن بفرنسا والأراضى المنخفضة ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٨م ص٢٢٨ .

وإذا كان "هويزنجا" يختار نماذجه الاستدلالية على هذه الصفات العقلية لأهل أوروبا آنذاك، من خلال الحياة والفكر والفن الأوروبى، فإن الباحث فيما خلفه المستشرقون فى هذه الفترة خاصا بالإسلام والمسلمين يستطيع بسهولة أن يعثر على الكثير من النماذج والاحكام التى تدل هى الأخرى على صحة ما ذهب إليه "هويزنجا" من ضعف وسطحية وبدائيه فى العقلية الأوروبية والتفكير الأوروبى وطرائقه فى العصور الوسطى، وفى هذه الحاله يجد الباحث أمامه بابا جديدا لدحض دعاوى المستشرقين ورد مفترياتهم على الإسلام وأهله لا اعتمادا على بيان زيفها من حيث الواقع وحقائق التاريخ فحسب وإنما اعتمادا على أساس داخلى يتعلق بطبيعة العقلية التى انتجت تلك الدعاوى ورددت تلك المفتريات.

وهل هناك أدل على ضعف تلك العقلية وسذاجتها وعقم تفكيرها من أن يعلن احد من وصفوا بأنهم اعلم المؤلفين المسئولين عن الأدب فى تلك الفترة(١) فى جرأة وفحش – أنه لا يعتمد فى كتاباته عن الإسلام على أية مصادرة مكتوبه، وأنه يشير فقط إلى آراء العامة، ولا يوجد لدية أية وسيلة للتمييز بين الخطأ والصواب، ثم يبرر كتاباته غير العلمية عن الإسلام ونبيه ﷺ بقوله: "لا جناح على المرء اذا ذكر بالسوء من يفوق خبثه كل سوء يمكن أن يتصوره المرء(٢) "وهكذا يجد القارئ نفسه أمام نوع من التعميمات التى يقرر صاحبها أنه ليس لديه عليها أى دليل، بل أنه لا يحتاج فى اصدار مثل هذه التعميمات إلى أى دليل، وهل هذا، إلا الكذب يتعمده صاحبه ويقصد إليه قصدا ويصر عليه اصرارا".

لقد حاول "هويزنجا" أن يتلمس ادلته على ضعف العقلية الأوروبية وسذاجة تفكيرها فى العصور الوسطى فى نماذج "الحياة والفكر والفن الأوروبى، كما يتضح ذلك فى قوله مثلا عن طريقتهم فى إصدار أحكامهم "فلتفسير موقف أو حادثة يكفى دافع واحد، وإذا كان هناك أختيار وقع على أعم الدوافع، أو أشدها مباشرة، أو اغلظها، مثل ذلك أن الاحساس الحربى البرجندى لم يكن يرى إلا أساسا وحيدا دفع دوق برجنديا إلى تدبير مصرع دوق أورليان، فأنه

---

(١) هو "جيبر النوجنتى" المتوفى سنة ١١٢٤م .

(٢) انظر الدكتور محمود زقزوق : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ، الكتاب الخاص فى سلسلة "كتاب الامه" الطبعة الثانية ، مؤسة الرسالة سنة ١٤٠٥هـ ص٢٢ وانظر الدكتور عبد الجليل شلبى : صور استشراقيه الطبعة الثانية ، القاهرة ، دار الشروق سنة ١٤٠٦هـ ص٢٩ .

أراد الانتقام للزنا (المزعوم) بين الملكة وبين أورليان[١]. وكان الناس فى كل خصومة يغفلون جميع ملامح القضية، عدا ملامح قليلة كانوا يبالغون فى أهميتها كما يروق لهم، وبذلك يكون تقديم احدى الحقائق فى عقول تلك الحقبة مماثلا على الدوام لروسم خشبى بدائى له خطوط قويه وبسيطه وخطوط دوائرية واضحة المعالم جدا"[٢].

أقول: لقد حاول "هويزنجا" أن يتلمس أدلة أحكامه على تلك العقلية فى نماذج "الحياة والفكر والفن" الأوروبى، ولو أنه التفت إلى تحصيل هذه الأدلة من خلال نماذج المستشرقين ومعارفهم وأحكامهم آنذاك لتحصل له الجم الغفير من الالة التى تدعم رأيه وتؤكد – بما لا يدع مجالا للشك – صحة هذا الرأى. وإن كان هو قد أشار إلى ذلك اشارة ضمنية حين قرر أن اصدار التعميمات على أساس التأمل الخاطئ يتجلى بوضوح فى كل صفحة كتبت فى مؤلفات ذلك الزمان، وحين وصف أبناء العصور الوسطى جميعا بأنهم كانوا "يعيشون فى أزمة عقلية مستمره، فلم يكونوا يستغنون لحظة واحدة عن أحكام خاطئة من أغلظ نوع"[٣].

ولا شك أن عقلية هذه طبيعتها لا يمكن أن تعنى بمراعاة الدقة والأمانة العلمية فيما تصدر من أحكام، ويتجلى انعدام الدقة إذا نظرنا – كما يقول "هويزنجا" إلى تلك العادة الشائعة والدائمة من المبالغة المضحكة فى عدد قتلى الأعداء فى المعارك، ويورد "شاستلان" اسماء خمسة نبلاء من أتباع الدوق قتلوا فى واقعة "جافر" فى مقابل عشرين أو ثلاثين ألفا من ثوار غنت"[٤].

ان تحليل العقلية الأوروبية فى العصور الوسطى على هذا النحو وتبين هذه الطبيعة الخاصة لها يفسر لنا الكثير من الوان المبالغات والتهويل التى اتسمت بها أحكام مستشرقى هذه الفتره على الإسلام والقرآن الكريم ونبينا محمد ﷺ.

وقد تضمن الفكر الاستشراقى فى العصور الوسطى الكثير من ضروب المبالغه والتهويل، من ذلك مثلا ما كتبه أحد قساوسة قرطبة ويدعى "الجوس قرطبه" "وجاء فيه "أن

---

(١) ابقينا على عبارة المؤلف بنصها كما فى الترجمة العربية ، لكننا ننبه إلى أن تكرار لفظه "بين" فى مثل هذا التعبير من الأخطاء اللغوية الشائعه .

(٢) اضمحلال العصور الوسطى ص٢٢٩ .

(٣) السابق ص٢٢٩ .

(٤) السابق ص٢٣٠ .

النبى محمدا ﷺ كان يخبر أصحابه انه بعد ثلاثة أيام من موته سيرفع إلى السماء فلما مات بقى دون دفن حتى يرفع جسده، ولكنه لم يرفع حتى تعفن جسده وأخذت الكلاب تنهش منه[١]. ألا ينم ذلك عن سخف العقل وقصده إلى الكذب.

ومن الأمثلة لتى تؤكد كذلك ما ذكره "هويزنجا" عن الأوروبين فى هذه الفترة وهو أنهم لم يكونوا يستغنون لحظة واحده عن أحكام خاطئة من أغلظ نوع، ما تضمنته قصيدة "رولان" وهى – كما يقول الدكتور غلاب – أهم منتجات العصور الوسيطة الغربية فى الأدب التسجيلى، من أن فرسان "شارلمان" قد اسقطوا الاصنام الإسلامية، وأن العرب يعبدون ثالوثا مؤلفا من "محمد" و"أبولون" و"تيرفاجان" ونحو ذلك ما يعتبر ضلالا لم يذكر التاريخ ضلالا اسقط منه وهو ضلال يعزوه الأستاذ الدكتور / غلاب إلى الجهل وسوء النية معا[٢]، ونضيف إليه سببا ثالثا يرجع إلى طبيعة العقل الأوروبى ذاته فى هذه الفتره وهى أنه عقل لديه ميل شديد لاختراع الأكاذيب واصدار الأحكام الخاطئة كما أن لديه القدرة بل الرغبة فى تصديقها كذلك، وتلك هى الحقيقة التى صورها لنا "يوهان هويزنجا" فى قوله: "وأخيرا، ماذا عسانا نقول عن الخفة العجيبة التى يتسم بها المؤلفون قرب نهاية العصور الوسطى، تلك الخفة التى تبدو لنا كأنما هى انعدام مطلق للقوى العقلية؟ إذ يبدو لنا أحيانا أنهم يقنعون بأن يقدموا لقرائهم مجموعة مسلسلة من الصور غير الواضحه وأنهم لا يشعرون مطلقا بأية حاجة إلى التفكير الجاد العميق حقا.. وهم لا يميزون بين الجوهرى الأساسى، والاتفاقى العارض، وانعدام الدقة لديهم أليم مستوجب للرثاء"[٣].

أما القدرة أو القابلية للاعتقاد فى صدق أى حكم لدى الأوروبين آنذاك فقد أكدها "هويزنجا" فى قوله ونشير هنا إلى أن ما اتصفوا به من سرعة التصديق الساذجة.. والافتقار إلى روح النقد بلغ من الشيوع ومعرفة الناس به أن لم يعد فى حاجة إلى ضرب الأمثلة عليه.. ومن أيسر الأمور على عقلية يسيطر عليها، كما حدث لعقلية العصور الوسطى المضمحلة، خيال ناشط ومثالية ساذجة، ووجدان قوي، ان تعتقد فى صدق كل مفهوم يعرض نفسه على العقل،

---

(١) الدكتور عبد الجليل شلبى : صور استشراقية ص٢٧ .

(٢) انظر الدكتور غلاب : نظرات استشراقية فى الإسلام ص٩ والدكتور محمود زقزوق : الاستشراق .. ص٦٢ .

(٣) اضمحلال العصور الوسطى ص٢٣٠ .

حتى إذا حدث أن حصلت فكرة على اسم وشكل افترض صدقها، وإذا هى تنزلق بشكل ما وتنخرط فى مجموعة الأشكال الروحية، وتشترك فيما لها من قابلية التصديق(١).

وقد أشار أحد الثقاة من المتخصصين فى تاريخ العصور الوسطى وهو "جورج كولتون" – أشار إلى هذه الصفة من صفات العقلية الأوروبية فى العصور الوسطى، أعنى القابلية للاعتقاد فى صدق أى حكم حين بين أن الكنيسة الرومانية قد تسلطت على عقول الأفراد ومقدراتهم، وأن نظرة أهل هذه العصور إلى الحياة كانت "نظرة ضيقة فى نطاق المسيحية التى كانت تدعو إلى التفكير فى العالم الآخر، فكان الفرد يقبل كل شيء دون فهم أو ادراك أو مناقشة، وخضع لآراء الكنيسة وتعاليمها خضوعا أعمى، وأصبح يصدق كل ما يقال له من الخزعبلات والخرافات.."(٢) وما دام العقل الأوروبى فى هذه العصور يقبل كل شيء دون فهم أو ادراك أو مناقشة ويصدق كل ما يقال له من الخزعبلات والخرافات، فلا عجب أذن أن يصدق ما أثير حول الإسلام آنذاك من خرافات وافتراءات مثل طعنهم على محمد ﷺ بأنه دجال، مدع، ملفق، وعلى المسلمين بأنهم قوم همج، لصوص، سفاكوا دماء، يحثهم دينهم على الملذات الجسدية ويبعدهم عن كل سمو روحى وخلقى، وكذلك طعنهم على الإسلام بأنه يبيح زواج المرأة الواحدة من عدة رجال معا، إلى آخر هذه الخرافات الساقطة التى تبلغ فى سخفها حدا تهبط فيه عن أى مستوى للجدل والمناقشة(٣).

ومن العادات التى تؤكد انعدام الدقة العقلية والأمانة فى عقلية الأوروبين فى هذا الزمان ما ذكره أشهر مؤرخى الحضارة من الأوروبين وهو "ول ديورانت" من ولعهم آنذاك بالكذب" فكانوا يكذبون على أبنائهم وأزواجهم وطوائفهم وأعدائهم وأصدقائهم وحكوماتهم وربهم، كان الرجل فى العصور الوسطى مولعا أشد الولع بتزوير الوثائق، يزور الاناجيل غير الصحيحة ويزور

---

(١) السابق ص٢٣٠ ، ٢٣١ .

(٢) جورج كولتون : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ، ترجمة وتعليق الدكتور جوزيف نسيم يوسف، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية سنة ١٩٨٣م ص١٧مقدمة المترجم وانظر ص٥١ ، ص٢٥٧.

(٣) انظر زوم لاندو : الإسلام والعرب ، ترجمة منير البعلبكى ، الطبعة الثانية ، بيروت سنة ١٩٧٧م ص٣٣ والدكتور مصطفى السباعى : الاستشراق والمستشرقون ص١٦ والدكتور محمد غلاب : نظرات استشراقيه ص١٠ .

الأوامر البابوية ليتخذها سلاحا فى السياسة الدينية وكان الرهبان الأوفياء يزورون العهود ليكسبوا بها منحا لاديرتهم من الملوك.

ولقد زور "لافرانك" رئيس أساقفة "كانتربرى" كما تقول المحكمة البابوية عهدا يثبت به قدم كرسيه الدينى، وزور المدرسون عهودا يخلعون بها على بعض الكليات فى "كيمبردج" أقدمية زائفة"(١) فإذا كانوا كذلك فى شئونهم الخاصة، وفيما بينهم وبين أنفسهم، وإذا كان كذلك من هم فى أعلى المستويات منهم لا سيما الرهبان ورجال الدين عموما. فهل يتوقع باحث أن ينصف هؤلاء دينا جديدا لم ترتفع نظرتهم إليه إلى أكثر من أنه عدو يقتلع الإنجيل ويجتذب إليه الكثيرين من رعايا الكنيسه النصرانية..

قد يتصور أن الضعف العقلى وانعدام الدقة والأمانة والولع بالكذب أمور تخص العوام والسوقه فى المجتمع الأوروبى فى هذه العصور، لكن الكثير مما نقله مؤرخو الأوروبين أنفسهم يدل على أن هذه كانت صفات قائمه بأكثر طبقات هذا المجتمع ثقافة وهم رجال الدين، بل أن البعض من المؤرخين قد اكتشفوا الكثير من هذه الصفات كذلك فى ملوك هذه الفترة من تاريخ أوروبا، فهذا "ديوارنت" يتحدث عن أكثر الملوك آنذاك شهرة وهو الملك "لويس التاسع" قائلا: "وكانت سذاجته تصل فى بعض الأحيان إلى حد الجهالة أو السذاجة اللتين يستحق عليهما أشد اللوم، ودليلنا على ذلك ما ارتكبه من خطأ شنيع، إذ تورط فى الحروب الصليبية والمعارك الخاسرة فى مصر وتونس " وقد دفعه إيمانه الدينى القوى الشبيه بإيمان الأطفال إلى درجة من عدم التسامح الدينى ساعدت على انشاء محكمة التفتيش فى فرنسا.. (٢)

ويرد "كولتون" هذا الحال من التخلف إلى ذلك الاعتقاد الذى سيطر على كثير من كبار المفكرين، ومؤاده: أن أول واجب للإنسان وآخره هو أن يعد نفسه للحياة الأبدية يقول: "ولا يمكن ارجاع النقص الأليم فى الوعى التاريخى، والملاحظة العلمية أو التجربة فى علم الطبيعة والتاريخ الطبيعى خلال الأمد الطويل، إلى صعوبة التدوين والمحافظة على الوثائق والمستندات فور كتابتها، ومقارنتها عن طريق المبادلة المستمرة الحرة بين طلاب العلم، إنما يرجع ذلك فى

---

(١) قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران طبقة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الجزء الخامس من المجلد الرابع ص١٨٧ .

(٢) السابق ، جـ٤ مجلد ٤ ص ٢٣١ .

معظمه إلى هذا الاتجاه الذهنى المسيطر على كثير من كبار المفكرين، فى العالم الآخر، ومؤادة انه فيما يتعلق بهذه الحياة الدنيا يجب أن نتخلى عن الأمل الطويل، والأفكار الواسعه، ذلك أن أول واجب للإنسان وآخره هو أن يعد نفسه للحياة الأبدية(١) وينفى "كولتون" عن راهب العصور الوسطى صفة العالم الكلاسيكى بقوله: ".. أما رؤيا الكاردنيال "نيومان" التى تراءى له فيها راهب العصور الوسطى على أنه عالم كلاسيكى، فيغلب عليها عنصر الخيال إلى حد بعيد.. (٢)

أن الحديث عن طبيعة العقل الأوروبى فى العصور الوسطى يطول ويتشعب، ونحسب أن ماعرفناه من سمات هذا العقل وعاداته وطرائقه فى التفكير كاف فى تبين أحد الأسس التى انطلق منها الفكر الأوروبى عموما- والفكر الاستشراقى جزء منه – فى هذه العصور، وإذا كان الفكر مرآة العقل المنتج له، وحاملا لسماته، فإنه يصح لنا أن نقرر أن من الخصائص البارزه فى الفكر الاستشراقى البدائية والسذاجة والسطحية، والتعميم المبنى على التأمل الخاطئ أو المبالغة والتهويل أو الكذب المتعمد والتدليس المقصود. وهذه الصفات تجعلنا نقول – مع الباحث الكبير الأستاذ محمد أسد – عن تلك الفترة عن التاريخ الأوروبى، أنها تمثل "الطفولة المبكرة للمدنية الغربية"(٣) وعلى ذلك فأن المستشرق المعاصر حين يرضى لنفسه أن يعيد ترديد شيئ من دعاوى العصور الوسطى فى تأليفه ويسوق البراهين على صحتها فإنما يرضى – بقصد أو بغير قصد أن يهوى بعقله من عصر الفضاء والذرة إلى عهود الطفولة المبكرة للمدنية الأوروبية.

ليس معنى ذلك أننا سوف نبنى حكما بغياب الموضوعية عن النتاج الاستشراقى لهذه الفتره على أساس هذه الطبيعة العقليه لأصحابه وحدها فأن مرض العقل أو ضعفه لا ينهض وحده مبررا لتلك الهجمة الشرسه الزائفه على الدين الإسلامى فى تلك العصور الغابره وأن كان يشكل أساسا لا غنى عنه اذا أريد تفسيرها تفسيرا صحيحا، فلا نظن احدا يشك فى أن العقل الضعيف لا ينتج عظائم الأفكار.

ج. الاستشراق والروح العدائى المتعصب:

تكشف الكتابات الاستشراقيه عن روح عدائى متأصل، وعصبية مقيته ضد الإسلام والمسلمين وسوف نبرهن على شيوع هذه السمة فى الفكر الاستشراقى فى العصور الوسطى من

---

(١) عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ص٥٧ .

(٢) السابق ص٥٤ .

(٣) الطريق إلى مكة ترجمة عفيف البعلبكى ، الطبعة الأولى ، بيروت سنة ١٩٥٦م ٢٠ .

خلال التعرف على أمرين أساسيين، أحدهما: طبيعة القائمين على النشاط الاستشراقى وما تنم عنه كتاباتهم من عداوة ظاهرة وعصبية عمياء، والثانى: ما أثاره هؤلاء من حرب شاملة ضد الإسلام والمسلمين، وفيما يلى نتناول هاتين النقطتين على هذا الترتيب.

أولاً: الاستشراق وحقيقة القائمين عليه فى هذه الفترة:

لم يعد خافيا على كل من له صلة بهذا الموضوع أو علم عام بتاريخ التفكير الأوروبى أن القائمين على النشاط الاستشراقى والمشتغلين به كانوا من طبقة رجال الدين. أو بتعبير أدق، رجال الكنيسة من باباوات وقساوسة ورهبان، وقد كان لدى هؤلاء من أسباب العداوة للإسلام والمسلمين ما وصل بها إلى ذروتها وهى الحرب الشامله ضد الإسلام وأتباعه. وتأتى الفتوح والانتصارات الإسلامية الكبرى فى مقدمة هذه الأسباب، اذ تمكن الإسلام، فى أقل وقت عرفه التاريخ لمثل هذه الفتوح، من بسط سلطانه على كثير من الممالك النصرانية، حيث اعتنقه الكثير منها، وبعد حوالى مائة عام من وفاة النبى ﷺ "وصل أتباعه غربا إلى أسبانيا، وشرقا إلى أن عبروا نهر السند، فما لبثوا أن وجدوا انفسهم سادة على امبراطورية أعظم من امبراطورية روما فى أوج قوتها.. (١) " وقد أفزع ذلك أهل أوربا عامه ورجال الكنيسة على وجه الخصوص، اذ بدأ لهؤلاء أن المسلمين سوف يجتاحون جميع أوروبا النصرانية، كما قد عبر عن ذلك أحد معاصريهم بقوله: "ولبرهة من الزمن كان يبدو وكأن العرب سوف يجتاحون جميع أوروبا المسيحية، ولكن وفى عام ٧٣٢م وفى معركة "تورز" انكسر الجيش الإسلامى الذى كان قد تقدم ووصل إلى أواسط فرنسا على يد جيش الفرنجه، وبالرغم من ذلك فانه، وفى قرن شحيح من القتال استطاعت هذه القبائل البدوية التى كانت تلهمها كلمات الرسول ﷺ أن تظفر بتأسيس امبراطورية تمتد من حدود الصين حتى المحيط الأطلسى، وهى أعظم امبراطورية شهدها العالم حتى ذلك الوقت.

وحيثما كانت تصل الفتوحات كان يتبعها اعتناق عدد كبير من الناس للدين الجديد على أوسع نطاق (٢).

وقد كان فى تحول الكثير من الممالك النصرانية إلى الإسلام انتقاص من سلطة الكنيسه ورجالها، وهى السلطة التى كانت تسعى آنذاك جاهدة لتدعيمها، فكان تهديد الإسلام لهذه

---

(١) توماس ارنولد : الدعوة إلى الإسلام .. النهضة المصرية سنة ١٩٧٠م ص ٢٦ .

(٢) الدكتور مايكل هارت : المائة الأوائل – ص٢٢ ، وانظر الدعوة إلى الإسلام ص٦٣ وما بعدها .

السلطة الكنسية وما تستتبعه من امتيازات لرجال الكنيسه فى العصور الوسطى سببا كافيا لاثارة موجة عاتيه من العداء لهذا الدين ظهرت جلية فى كتاباتهم عنه من جهة، وفى سعيهم لاشعال نار الحروب الصليبية ضد المسلمين من جهة اخرى.

وقد انعكس هذا الاحساس - الاحساس بالصراع بين الاسلام والنصرانية - فى فكر مستشرق معاصر هو هاملتون جب "حين تحدث عن الإسلام قائلا: "أما الإسلام فإنه بعد أن أقام نظاما سياسيا شمل جميع المناطق المنشقه (يقصد المنشقة عن المذهب الكاثوليكى) واجه مهمة أخرى هى ادخال هذه المناطق فى نظام ثقافى دينى مشترك قائم على مفهومه العالى الشامل، فكان عليه من أجل تحقيق هذا الهدف أن يقاوم تأثير المفهوم العالى السابق (أى المسيحية) فى غربى آسيا والنصف الجنوبى من حوض البحر الأبيض المتوسط ويضعفه إلى أقصى حد ممكن"(١).

هناك سبب آخر لهذا العداء يكمن فى مبادئ العقيدة الإسلامية، اذ تنكر هذه العقيدة الأسس التى تقوم عليها الديانة النصرانية وهى التثليث، والصلب، والفداء وهى عمد النصرانية الواقعية وأركانها(٢)، ولنأخذ لبيان الفارق الجوهرى بين الإسلام والنصرانية مع شيء من التجاوز- كلام "ديورانت" فى ذلك وفيه يذكر أن "الأديان السماوية الثلاثة التى أعانت على تكوين عقلية الناس فى العصور الوسطى مجمعة كلها على أن هذه العقلية الكونية هى الله الواحد ذو الجلال، غير أن المسيحية قد أضافت إلى هذه العقيدة أن الله الواحد يظهر فى ثلاثة أقانيم مختلفة. أما اليهودية والإسلام فتريان أن هذا الاعتقاد ليس إلا شركا مقنعا"(٣) فرفض الإسلام لفكرة التثليث يعتبر فارقا جوهريا بينه وبين النصرانية، كما أن إنكاره لفكرتى الصلب والفداء فوارق جوهرية أخرى بين الدينين وإن لم يشر "ديورانت" إلى ذلك، كذلك فإن تسويته بين مفهوم "الإله" فى الإسلام واليهودية محل نظر ليس هذا مقامه.

---

(١) دراسات فى حضارة الإسلام ترجمة الدكتور احسان عباس والدكتور محمد نجم والدكتور محمود زايد ، الطبعه الثالثه ، دار العلم للملايين ، بيروت سنة ١٩٧٩م ص٥.

(٢) انظر الدكتور / أحمد محمد جمال : مفتريات على الإسلام الطبعة الرابعة ، رابطة العالم الإسلامى سنة ١٤٠٥هـ ص١٢ ونقصد هنا بالنصرانية الواقعية : النصرانية كما يفهمونها لا كما كانت عليه فى الحقيقة قبل ما أصابها من تحريف .

(٣) قصة الحضارة الجزء الثانى من المجلد الرابع ص٥٣ .

ولسنا بحاجة لتأكيد أن القائمين على الاستشراق والمشتغلين به كانوا من رجال الكنيسة أكثر من أن تلقى نظرة سريعة على تراجم أشهر المستشرقين الذين عرفهم ذلك الطور من أطوار الاستشراق، وسوف نرى أن فى مقدمة هؤلاء "جربر دى أورلياك وقد كان ينتمى إلى الرهبانية البندكتيه، كما انتخب حَبرًا أعظم باسم "سلفستر الثانى (١٩٩٩ – ١٠٠٣م) فكان أول بابا فرنسى، ومنهم "ديكويل" وهو راهب فرنسى لمع اسمه فى عام ١١٢٥م و"ادلر أوف باث" (١٠٧٠ – ١١٣٥م) وقد انخرط فى سلك الرهبانية البندكتية، ولعل من أشهرهم "بطرس المكرم" (١٠٩٤ – ١١٥٦م) وهو كذلك فرنسى من الرهبانية البندكتية، ومثله جيرار دى كريمونا" (١١١٤ – ١١٨٧م) و"ميخائيل إسكوت" (١١٧٥ – ١٢٣٦م) و "توماس الإكوينى" (١٢٢٥ – ١٢٧٤م) وقد كانوا جميعا من الرهبان البندكتيين، كما كان "ألبرت الأكبر" (١٢٠٦-١٢٨٠م) و" رايموندو مارتينى" (١٢٣٠-١٢٨٤م) من الرهبانية الدومينيكية، أما "روجر بيكون" (١٢١٤ – ١٢٩٢م) و"ريموند لل" (١٢٣٥-١٣١٤م) وهما أكثر المستشرقين شهرة فى هذه الفترة – فقد كانا من الرهبان الفرنسيسكانيين.

وهكذا نصل فى تتبع أسماء من سجلوا فى عداد المستشرقين إلى نهاية العصور الوسطى دون أن نعثر على واحد من مستشرقيها بعيدا عن دائرة الكنيسة النصرانية، وإذا كانت الكنيسة قد وقفت منذ البداية موقفا عدائيا ضد الإسلام، فإن ذلك يعنى أن ما كتبه عنه رجالها كان بالضرورة أثرا من آثار تلك الروح الكَنَسِيّة العدائية المتعصبة، الأمر الذى يجعلنا نحكم مطمئنين بأن الروح العدائى المتعصب يعتبر إحدى السمات المميزة للاستشراق فى العصور الوسطى.

ثانيًا: الحروب الصليبية:

إذا كان رجال الكنيسة هم الذين نهضوا للدور التأسيسى للحركة الاستشراقية وكان هؤلاء بطبيعة واجباتهم الأساسية دعاة لتنصير غير النصارى – كما سنعرض ذلك فيما بعد – فإن هؤلاء الرجال هم أنفسهم الذين حملوا عبء الدعوة للحرب العسكرية الشاملة ضد الإسلام والمسلمين، ولم يهدأ لهم بال حتى أشعلوا أوارها، وتلك هى الحرب المعروفة فى التاريخ باسم "الحروب الصليبية"، وقد كانت هذه الحرب تعبيرا عمليا عن الحقد النصرانى فى ذروته – وخاصة من نصارى أوروبا – على الإسلام وأهله. يؤكد ذلك ما صرح به "مايكل هارت" وهو أن الدعوة لهذه الحروب لو قام بها أى داعية آخر من أصحاب السلطة الزمنية – بعيدا عن الكنيسة

– لما صادفت دعوته أى نجاح" ولم تكن الحروب الصليبية لتحدث لولا تحريض البابا "إربان الثانى".. والحقيقة أنه لو قام الإمبراطور الألمانى بإعلان الحروب الصليبية لما تبعه أى شخصية من شخصيات أوروبا الغربية، ولكن الشخص الوحيد الذى كان مؤهلا لأن يتبعه جميع الملوك والأمراء فى أوروبا هو شخصية البابا"(١).

من الكنيسة ورجالها إذن بدأت العداوة للإسلام، ومنها بدأت الحروب الفكرية الاستشراقية المشوهة للدين الحنيف، ومنها كذلك انطلقت الحرب العسكرية ضد الإسلام والمسلمين.

وبعيدا عن تفاصيل هذه الحروب ووقائعها الدامية – وهى الأمور التى تعنى المؤرخ بالدرجة الأولى – نود أن نؤكد هنا على حقيقة مهمة، وهى أن المسلمين منذ تسلموا بيت المقدس فى عام (١٥هـ – ٦٣٨م) كانوا حريصين – كما هو شأنهم مع جميع البلاد التى دخلت فى حوزتهم – على سلامة النصارى وحماية كنائسهم وصُلْبانهم، وكان عمر بن الخطاب ﷺ، يعبر عن روح الإسلام وتعاليمه حين أعطى أهل "إيلياء" (بيت المقدس) أمانا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصُلْبانهم، ونص فى عهده لهم على أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حَيِّزِها، ولا من صلبهم، ولا شَيْء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم.

وقد اعترف بهذه الحقيقة الكثير من المستشرقين، فهذا "روم لاندو" يتحدث عن عمر بن الخطاب ﷺ إبان تسلمه لبيت المقدس من يد الروم، فيصف سياسة الرحمة التى انتهجها عمر بأنها تكشف عن حكمة وبعد نظر، ويبين أنه قد بذل قصارى جهده للحيلولة دون التعرض للكنائس النصرانية، وللمحافظة على سلامة كنيسة القيامة "حتى إذا أبدى الخليفة رغبته فى زيارة المقام السامى، حان موعد الصلاة الإسلامية، فما كان منه إلا أن مضى إلى خارج الكنيسه حتى باب الشهداء، وصلى هناك، خشية أن يطالب أتباعه المتحمسون بتلك الكنيسه بوصفها مكانا أدى فيه عمر فريضة الصلاة، وكان النبى محمد ﷺ نفسه قد قال إن النصارى واليهود على السواء أهل كتاب، وإن على المسلمين أن يجيزوا لهم الاحتفاظ ببيوت عبادتهم، ولا يتعرضوا لها بأذى، وعلى نقيض الإمبراطورية النصرانية التى حاولت أن تفرض المسيحية على جميع رعاياها فرضا، اعترف العرب بالاقليات الدينية، وقبلوا بوجودها.." (٢).

---

(١) الدكتور / مايل هارت : المائة الأوائل ص١٦١ .

(٢) روم لاندو : الإسلام والعرب ص١١٩ .

وإذا تأملنا معاملة المسلمين لأهل الكتاب جميعا منذ أول عهد بالإسلام وحتى إعلان هذه الحرب فسوف نجدها لا تخرج عن هذه الروح التى أبداها الخليفة الثانى ﷺ ، وهى الروح التى أمر بها القرآن الكريم وأكدتها السنة المطهرة(١).

لكنا – على الجانب الآخر – نجد من أهل الكتاب (اليهود والنصارى) موقفا عدائيا ظاهرا ضد الإسلام وأهله منذ ظهر هذا الدين، كما سجل ذلك القرآن الكريم، وكما حفظته كذلك كتب التاريخ، وقد تجلت مظاهر هذا العداء بشكل بارز – خلال الفترة التى تتناولها تلك الدراسة – فى مظهرين، أحدهما: ما كتبه المستشرقون عن الإسلام وأهله وحضارته فى هذه الفترة، وثانيهما: هذه الحروب المعروفة بـ "الصليبية" والتى كانت بداية سلسلة طويلة من الصراع النصرانى المسلح ضد الإسلام والمسلمين، وهى سلسلة لم تأت بعدُ آخرُ حلقاتها.

قد يطيب لبعض الباحثين أن يتحدث – فى تقديمه للحروب الصليبية – عن اضطهاد المسلمين للنصارى إبان حكم "السلاجقة" لكن حديثهم هذا مردود بحقائق التاريخ كما قد اعترف بذلك العديد من المؤرخين الأوروبين أنفسهم إذ "قرروا فى صراحة تامة أن السلاجقة لم يغيروا شيئا من أوضاع المسيحيين فى الشرق، وأن المسيحيين الذين خضعوا لحكم السلاجقة صاروا أسعد حالا من إخوانهم الذين عاشوا فى قلب الإمبراطورية البيزنطية ذاتها، وأن ما اعترى المسيحيين فى الشام وآسيا الصغرى من متاعب فى ذلك العصر، إنما كان مَرَدُّه الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين، لأنه لا يوجد أى دليل على قيام السلاجقة باضطهاد المسيحيين الخاضعين لهم(٢)".

ليس من صواب الرأى كذلك – فى نظرنا – أن يحاول البعض الانتقاص من الروح الإسلامى النبيل فى معاملة النصارى فى البلدان الإسلامية اعتمادا على ما قيل من عسف الخليفة الفاطمى (الحاكم بأمر الله) وظلمه لنصارى القدس، لأن البحث النزيه لا يرضى أن

---

(١) فى القرآن الكريم كثير من الآيات التى تؤكد هذه المعانى ، من أمثلتها قول الله عز وجل : [فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهوائهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لا عدل بينكم ، الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا واليه المصير] (الشورى ١٥) ، هذا يعبر فعلا عما جاء فى السنة النبوية من أحاديث توصى المسلمين خيرا بأهل الذمة .

(٢) الدكتور سعيد عاشور : تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب . طبع بيروت ، النهضة العربية ١٩٧٢م ص ٢١ .

يهدم – اعتمادا على بعض الحوادث الفردية – مبادئ أساسية، قررها الإسلام فى معاملة المسلمين لأهل الكتاب صراحة فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وسار عليها المسلمون جيلا بعد جيل، ولا ينقض هذه المبادئ، ولا ينتقص من قيمتها أن يخالفها أفراد قلائل من حكام المسلمين. وهكذا لا يصح – كما يقول أحد كبار المؤرخين الأوربيين – أن تتخذ حالات الاضطهاد الفردية هذه بأى حال "سببا حقيقيا للحركة الصليبية، لأن المسيحيين بوجه عام تمتعوا بقسط وافر من الحرية الدينية وغير الدينية فى ظل الحكم الإسلامى، فلم يسمح لهم فقط بالاحتفاظ بكنائسهم القديمة، وإنما سمح لهم أيضًا بتشييد كنائس وأديرة جديدة، جمعوا فى مكتباتها كتبا دينية متنوعة فى اللاهوت.."(١).

أما استدلال البعض على اضطهاد المسلمين للنصارى على أساس ما تحمله هؤلاء من ظلم فى عهد الخليفة الفاطمى (الحاكم بأمر الله) فليس مَسَلَّما، لأن هذا الخليفة – كما يقرر "روم لاندو" – كان صاحب مزاج غير سوى، ولذلك فإنه بعد فترة من حكمه قد "قلب سياسته رأسا على عقب، فقرب النصارى واليهود، وأنشأ يضطهد المسلمين"(٢) فالأمر هنا ليس أمر اضطهاد من المسلمين للنصارى، ولكنه أمر حاكم مختل المزاج، مُنِىَ به المسلمون والنصارى معا، وأصاب ظلمه الفريقين على حد سواء.

ولو كان الأمر – كما يقال – أمر اضطهاد من المسلمين للنصارى، فبماذا نفسِّر هذا الموقف الذى يسجله التاريخ للمسلمين، بعد أن صادر الحاكم بأمر الله ممتلكات الكنيسة، وأصدر أمره بهدم كنيسة القيامة، وهو أن المسلمين قد هبوا – كما يقول الأستاذ العقيقى – يعاونون النصارى على إعادة بناء الكنيسة، ويأذنون لتجار "مالفى" بتشييد مستوصف لمرضى الحجاج والفقراء داخل أسوار القدس سنة ١٠٤٨(٣).

أن الحقيقة هى – على عكس ما أشِيعَ، كما قد تنبه إلى ذلك أحد مفكرى الغرب – أن المسلمين هم الذين عانوا فى كثير من الأحوال من ظلم النصارى، يقول "توماس أرنولد" فى ذلك:

---

(١) السابق ص٢٠ .

(٢) روم لاندو : الإسلام والعرب ص١٢٠ .

(٣) انظر "المستشرقون "الطبعة الرابعة ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٠م جـ١ ص٥٦ .

"ويظهر أن أمثال سورات الاضطهاد هذه، قد أثارها فى بعض الحالات هؤلاء المسيحيون الذين شغلوا مناصب عالية فى خدمة الحكومة، من جراء إساءة استعمال سطلتهم، فأثاروا على أنفسهم – بظلمهم المسلمين، شعورا قويا من الاستياء، وقد قيل إنهم استغلوا مناصبهم العالية فى سلب أموال المؤمنين ومضايقتهم، ومعاملتهم بشيء كثير من الغلظة والقحة، وتجريدهم من أراضيهم وأموالهم، وقد تقدم المسلمون بالشكوى إلى الخليفة "المنصور" (٧٥٤-٧٧٥م) ١٣٦-١٥٨هـ، والمهدى (٧٧٥-٧٨٥م) ١٥٨-١٦٩، والمأمون (٨١٣-٨٣٣م) ١٩٨-٢١٨هـ والمتوكل (٨٤٧-٨٦٤م) ٢٣٢-٢٤٧هـ والمقتدر (٩٠٨-٩٣٢) ٢٩٥-٣٢٠هـ، وإلى كثير من خلفائهم، كما تعرضوا أيضا لبُغْض كثير من المسلمين باستخدامهم عيونا للدولة العباسية ومطاردة اشياع البيت الأموى الذى أقصى عن الحكم، وفى عصر متأخراتهم المسيحيون فى زمن الحروب الصليبية باتصالهم بالصليبيين اتصالا ينطوى على الخيانة، فجلبوا على أنفسهم قيودا شديدة الحرج، ليس من العدل أن نصفها بأنها اضطهاد دينى(١).

وإذا كان الهدف المباشر لهذه الحملات التى اتخذت الصليب شعارا لها هو بيت المقدس – كما يقال – فكيف نفسر ما فعلته طليعة هذه الحروب (الحَمْلة الأولى سنة ١٠٩٦-١٠٩٩م) بالقسطنطينيين حيث نهبت كنائسها وقصورها وبيوتها(٢) وكيف نفسر عدول رابعة هذه الحملات عن مهاجمة مصر أو فلسطين والاتجاه إلى مهاجمة مدينة "زارا" الواقعه على بحر الأدرياتيك"، ولو أن هؤلاء الصليبيين قد هبوا بالحق لحرب مقدّسة أرادها الله – كما زعموا – لما دخلوا فى حرب ضد أخوانهم فى الدين، ولما ارتكبوا ضدهم أشنع الجرائم(٣).

ولقد صور "روم لاندو" جرائمهم فى هذه الحرب بقوله: "وهكذا لم يجد الصليبى نفسه مضطرا إلى مقاتلة أخيه النصرانى الذى لم ينزل به أيما أذى فحسب، بل لقد أغرى فوق ذلك بأن ينهب روم القسطنطينية ويفتك بهم، وليس بين جرائم التاريخ جريمة ارتكبت لمجرد الرغبة فى التدمير أشنع من غزو القسطنطينية عام ١٢٠٤م، وكرة أخرى كشف اللاتين عن وجههم الحقيقى"(٤).

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص٩٧ .

(٢) انظر العقيقى : المستشرقون ٥٦/١ .

(٣) انظر روم لاندو : الإسلام والعرب ص١٢٢ والدكتور سعيد عاشور : تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ص٢٣ .

(٤) روم لاندو : الإسلام والعرب ص٢٧ .

وإذا كانت هذه الحرب تنفيذا لإرادة الرب – بزَعْمهم – فكيف يمكن كذلك تفسير محاولتهم للتحالف مع المغول الوثنيين الذين لم يفرق سيفهم بين مسلم ونصرانى، وقد "كان خليقا بالنصارى أن يتحالفوا مع المسلمين النزاعين إلى الوفاء بالمُعَاهَدات لكى يدفعوا عن الإنسانية بلاء المغول. والواقع أنه كان فى ميسورهم أن ينهجوا هذا النهج، ومع ذلك فنحن نجد أن ما حدث كان هو العكس تقريبا، فقد وجه زعيم العالم المسيحى البابا "إنوسنت الرابع" بعْثتين إلى منغوليا، وكان "القديس لويس" الورع قد أبى على نحو موصول أن يتفاوض مع المسلمين بأية حال، ومع ذلك، فإنه لم يجد أية غضاضة على معتقداته الدينية أن يوجه موفدين دومينيكيين لمفاوضة المغول الوثنيين"(١).

وأخيرا كيف نفسر مجزرتهم فى بيت المقدس بعد فتحها عام ١٠٩٩م ونهبهم كذلك مدينة الإسكندرية عام ١٣٦٥م، والذى كان – كما يقول "روم لاندو" آخر مظهر من مظاهر سفالة الغزاة ولؤمهم.. والواقع أن المجازر التى رافقت ذلك العمل لا يضارعها شَىْء غير مجازر القدس عام ١٠٩٩م، والقسطنطينية عام ١٢٠٤م، وفى ذلك برهان قاطع على أن كر السنين لم يخفف إلا قليلا من أعمال اللا تسامح التى قام بها الصليبيون باسم الله.. (٢).

لقد أَطَلْت بعض الشىْء فى هذه النقطه لأبين أن كتابات المستشرقين المعادية للإسلام فى هذا الطور المبكر من أطوار الاستشراق، لم تكن مقطوعة الصلة عن تلك الحروب الصليبية المحمومة، إذ إن أصحاب هذه الكتابات المسمومة هم أنفسهم مشعلو نار هذا الحروب، إنهم فى الحالين رجال الكنيسة، والباعث الذى دفعهم لهذه الكتابات هو نفسه الذى حركهم لإشعال هذه الحروب، إنه القضاء على هذا الدين الجديد الذى ينقص كل يوم من سلطانهم بما ينجذب إليه ويعتنقه من رعيتهم، وبما تستسلم له من أراضيهم. وفى ظل البابوية والكنيسة، كان يتحرك الملوك والأمراء ورجال السياسة، وكانت حركتهم لأغراض ودوافع تَخُصُّهم أنفسهم، ولم يكن

---

(١) روم لاندو : الإسلام والعرب ص١٣٠ .

(٢) السابق ص١٣١ . ويلاحظ أن "رنسيمان" قد صور تدمير المدينة البيزنطية (القسطنطينية) باسم المسيح بأنه أعظم مأساة وقعت فى العصور الوسطى . (انظر تاريخ الحروب الصليبية ص١٤) بينما سوى "لاندو" بين هذه المآسى الثلاث من حيث هولها وفظاعتها وتدميرها ، ولمعرفة المأساة التى عاشها المسلمون فى القدس عندما دخلها الصليبيون ، انظر ما يميز به تساويتهم عن ذلك بكل البهجه والشماته فى " قصة الحضارة" تأليف "ول ديورانت . الجزء الرابع من المجلد الرابع ص٢٥ .

يجهل هذه الحقيقة سوى تلك الجموع الغوغائية التى أثرت فيها خطبة الباب "إربانيوس الثانى" وخدعهم وعده لهم "بالفوز ببركة الكنيسة، وبالغفران الكامل لخطاياهم مكافأة أزلية لهم على نضالهم"(١).

لم يكن حب المسيح ﷺ ، أو طاعة الله وإعلاء كلمته إذن أول الدوافع التى حركت رجال الكنيسة، وأمراء نصارى الغرب وملوكهم وعامتهم لخوض هذه الحروب، وليس أدل على ذلك من حالة السقوط الدينى التى تردت فيها الكنيسة فى تلك الأزمان وكذا جمهور الأوربيين، وهى الحالة التى يصعب معها قبول القول بأن طاعة الله وتنفيذ إرادته كانت السبب فى هذه الحروب كما ادعى ذلك رجال الكنيسه، وهذا أحد مفكرى الأوربيين يصور تلك الحالة الدينية للأوربيين آنذاك بقوله: "وربما لم يكن بين جميع التناقضات التى تتبدى فى الحياة الدينية لتلك الفترة ما هو أعسر على الفهم من الاحتقار الصريح لرجال الدين "ويعلل هذا الاحتقار أو معظمه بما "تجلى فى الطبقات العليا من رجال الدين من نزعات دنيوية، وفى درجاتهم السفلى من فساد.. فلم يكل الناس قط من الاستماع إلى التنديد برذائل رجال الدين، وكان من المؤكد أن كل واعظ يندد بطبقة رجال الدين، لابد أن يقابل بالتهليل والاستحسان"(٢) "وينقل قبل موضع آخر ما عبر به "ديشان" عن تحسره على ذلك الوضع وهو الأبيات التى يقول فيها:

فى الأزمان الخالية كان الناس
على خلق رقيق فى الكنيسه
فهم جاثون على ركبهم ذلة وخضوعًا
إلى جوار الهيكل
حاسرين الرؤوس بتواضع
ولكنهم الآن شأن البهائم(٣)

---

(١) السابق ص١٢٢ وانظر الدكتور / مايكل هارت : المائة الأوائل ص١٥٩ ١٦٠ والدكتور سعيد عاشور : تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص٣٣ ، و"ول ديورانت : قمة الحضارة الجزء الرابع من المجلد الرابع ص١٥" .

(٢) يوهان هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى .. ص ١٧٤ .

(٣) السابق ص١٥٦ .

كذلك تحدث "بريفالت" عن حال الكنيسة فى تلك العصور، وبين ما صارت إليه بعد أن دخلها "التوتونيون" الذين اعتبروا فتوحاتهم "فرصا لعربدة السكر والظلم الفظيع" وذكر أن هؤلاء حينما تنصروا غيروا الصوامع إلى مَحالَّ للسكر والعربدة، وأن الصوامع كانت فى القرن الثامن والتاسع والعاشر، تصدى ليلا بضجيج العربدة والسكر(١).

ويذكر المؤرخون أن الكنيسة الغربية كانت عاجزة عن إنقاذ أوروبا من الحمأة التى تردت فيها خلال هذه القرون، لأنها "تعرضت هى الأخرى لموجة جارفة من الانحلال والذبول.. فجرف التيار الإقطاعى عن رجال الدين، وتصدع سلطان البابوية، وانحط المستوى الخلقى لرجال الكنيسة.." (٢).

فإذا كان الأمر على ما أوضحنا، فإنه يتبين أن الخوف على مكانة الكنيسة وسلطة البابا من ذلك الخطر الماثل فى الإسلام، كان المحرك الأول وراء هذه الحروب. وقد كان توطيد سلطة البابوية، ومد نفوذ الكنيسة الغربية على الكنيسة الشرقية حلما راود عددا من باباوات "روما" فى هذه الفترة، فضلا عن أملهم فى أن يحسم لصالحهم ذلك الصراع العنيف الذى دار بينهم وبين السلطة العلمانية، "وهو الصراع الذى نطلق عليه، النزاع بين البابوية والإمبراطورية فى العصور الوسطى، وقد بدأت أولى حلقات هذا النزاع سنة ١٠٧٦م، أى قبل الحملة الصليبية الأولى بنحو عشرين عاما، واستمر بعد ذلك سنوات طويلة، وفيه حشدت كل من البابوية والامبراطورية جميع قواها، وامكانياتها للتغلب على الطرف الآخر(٣)" وقد أكد ذلك "روم لاندو" فى قوله: "وكان الباب غريفور يوس السابع، قد فكر فعليا – يحدوه حلم بانشاء كنيسة كلية خاضعة لسلطان البابوية – فى تنظم حملة لانقاذ الإمبراطورية الشرقية منذ عام ١٠٧١م.."(٤) وقد ذكر "ديورانت" أن هذا النزاع بين الإمبراطورية والبابوية كان "لا يزال على أشده حين رأس البابا "إربان" مجلس "بياسنزا" فى مارس من عام ١٠٩٥م، وأيد البابا فى هذا المجلس استغاثة

---

(١) انظر . أثر الثقافة الإسلامية فى تكوين الإنسانية ص٤١ ، ٤٢ والكتاب المذكور هو أبواب مختارة من كتاب "تكوين الإنسانية" للأستاذ روبرت بريفالت ، ترجمها السيد أبو النصر أحمد الحسينى، طبع دار الكتب الحديثة، مصر سنة ١٣٧٧هـ – ١٩٥٧م .

(٢) الدكتور سعيد عاشور : تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب : ص٨ .

(٣) السابق ص١٠ .

(٤) الإسلام والعرب ص١٢١ .

"الكسيوس".. ولقد كان يحلم بإعادة الكنيسة الشرقية إلى حظيرة الحكم البابوى، ويرى بعين الخيال عالما مسيحيا، عظيم القوة متحدا تحت حكم البابوات الدينى، و"رومة" تعود حاضرة للعالم، وكان هذا تفكيرا أملته رغبة فى الحكم لا تعلو عليها رغبة.." (١) كل هذه الظروف تؤكد لنا أن الغاية التى أعلنت للحروب الصليبية لم تكن فى الحقيقة إلا ستارا يخفى خلفه الحفاظ على سلطان الكنيسة وتدعيم هذا السلطان وتوسيع نطاقه.

وإذا كان البابا فى سبيل هذا الغرض قد دخل فى صراع مرير مع السلطة العلمانية وجند لذلك جميع الإمكانيات المتاحة لديه، وكان كذلك يحلم ببسط سلطانه على الكنيسة الشرقية، أفلا يكون مستعدا من أجل هذا الغرض نفسه – لخوض حرب ضروس ضد الإسلام والمسلمين دَرْءًا لذلك الخطر الذى لم يكن فحسب يتهدد سلطانه وطموحاته، وإنما يتهدد – فى نظره – كيان النصرانية كله..

ومرة أخرى يتضح لنا أن الحروب الصليبية كانت تهدف أصلا إلى القضاء على الإسلام، ذلك الخطر الذى بات يهدد سلطة البابوية وأحلامها، وينتقص منها كل يوم، وكان هذا الهدف نفسه هو ما قصدت إليه كتابات المستشرقين حول الإسلام فى هذه الفترة، ولم يكن المستشرقون – آنذاك – إلا رجال الكنيسة، الأمر الذى يكشف لنا أن السيف والقلم كانا سلاحين فى يد واحدة، وأنها كانت تعمل بِكِلَيْهما لهدف واحد.

الاستشراق والطابع التنصيرى:

من السمات التى يتميز بها الفكر الاستشراقى كذلك فى هذه الفترة – فترة العصور الوسطى – ذلك الطابع التنصيرى الذى يبرز فى كل جوانبه وأهدافه، والحق أن أى باحث – بالغا ما بلغ من الدقة – لا يستطيع أن يضع خطا فاصلا بين الاستشراق والتنصير فى هذه الفترة، اذ سيؤديه بحثه إلى اكتشاف ما بين الاثنين من علاقة عضوية لا تقبل الانفكاك – على الأقل إلى مطالع العصر الحديث – وهذا سعطينا دليلا آخر على أن الفكر الغربى، فى تصوره للإسلام، قد ظل لقرون عديدة بعيدة عن الموضوعية، مجافيا لكل ما يستحق أن يوصف بالروح العلمى فى البحث.

---

(١) قصة الحضارة جـ٤ من المجلد الرابع ص١٤ ، وانظر العقيقى : المستشرقون ٥٦/١ .

ومن السهل على كل من يراجع تاريخ الاستشراق والتنصير، أن يتبين قوة الرباط بينهما، بل أنه يكفى لذلك أن نراجع تراجم المستشرقين الذين بروزا فى الاستشراق خلال العصور الوسطى – وهى الفترة التى يتناولها هذا القسم من دراستنا للاستشراق – لنرى أنهم كانوا جميعا دعاة للنصرانية، وأن كل خطوة كانوا يخطونها لتدعيم الاستشراق، كانت لا تجد لها الا مبررا واحدا هو انجاح عملية التنصير.

فإذا كان المستشرق والمبشر يجتمعان – فى هذه الفترة على الأقل – فى شخص واحد – كما سنتبين ذلك، وكان هدفه محددًا سلفا، وهو – كما صرح به الكثيرون منهم – "طعن الإسلام بسيف الكتاب المقدس"، فإنه يكون قد اختار – مسبقا – لبحوثه ودراساته أى وصف آخر إلا وصف الموضوعية، لأن الموضوعية تتنافى مع التعصب والأفكار السابقة أيا كان نوعها وباعثها، فان العالِم – كما يقول "ديورانت" – "وإن كان مواطنا فى بلده، يحبه لما يربطه من صلات وثيقة، يحس أيضا بأنه مواطن فى بلد العقل، الذى لا يعرف عداوات ولا حدودا، وهو لا يكاد يكون خليقا باسمه، إذا ما حمل معه فى أثناء دراسته أهواء سياسية، أو نزعات عنصرية، أو عداوات دينية.."[(١)] فأى وصف يناسب مستشرقى العصور الوسطى وقد اجتمعت فيهم كل هذه إلاهواء والنزعات والعداوات التى أشار إليها "ديورانت".

وتدلنا تراجم المستشرقين والمنصرين على صحة ما ذكرنا من قبل، وهو أن المستشرق والمبشر قد اجتمعا – آنذاك – فى شخص واحد، بل إنه لمن الصحيح أن نقرر أن جميع المستشرقين فى العصور الوسطى إنما كانوا يقومون بدورهم كمستشرقين تلبية لواجبهم الأصلى كمبشرين.

إن من أقدم من دونت أسماؤهم فى سجل الاستشراق فى هذه الفترة "جربر دى أورلياك (٩٣٨-١٠٠٣م)، قد تلقى علومه فى الأندلس" حتى أصبح أوسع علماء عصره ثقافة بالعربية والرياضيات والفلك، ولما ارتحل إلى روما سما على أقرانه وانتخب حبرا أعظم باسم "سلفستر الثانى" (٩٩٩-١٠٠٣م) فكان أول بابا فرنسى[(٢)].

---

(١) قصة الحضارة : الجزء الثانى من المجلد الرابع ص ٣٨٨ .

(٢) الأستاذ العقيقى : المستشرقون ج ١ ص ١١٠ .

ولقد كان من أبرز أعماله فى مجال الاستشراق، أمره بإنشاء مدرستين عربيتين، إحداهما فى مقر خلافته "روما"، والثانية فى وطنه "رايمس" ثم أضيف إليهما مدرسة ثالثة، هى مدرسة "شارتر".

فأى هدف يمكن أن يتجه إليه سعى أحد باباوات روما وجهوده فى ميدان الاستشراق، والواجب الأساسى لوظيفته فى خدمة الكنيسة والتبشير بدينها؟ وهل يشك أحد فى أن الاستشراق فى مثل هذه الحالة، قد كان وسيلة ضرورية لخدمة أهداف التنصير؟

وإذا تركنا "جربر دى أورليناك" أو البابا سلفستر الثانى، وتجاوزنا كذلك - قصدًا إلى الاختصار - عن بعض الشخصيات التى عدت بين المستشرقين فى هذه الفترة من أمثال قسطنطين الإفريقى المتوفى سنة ١٠٨٧م، و"دى سانتالا"، و"ديكويل" الذى لمع اسمه عام ١١٢٥م، و"أدلر أوف باث" (١٠٧٠ - ١١٣٥م) وكلهم ممن انخرطوا فى سلك الرهبانية (١) - إذا تجاوزنا عن هؤلاء، فسوف نلتقى بشخصية من أبرز الشخصيات المعدودة بين المستشرقين فى القرن الثانى عشر الميلادى، وهى شخصية صاحب القداسة "بطرس" أو "بطرس المكرم" - كما يسمونه - (١٠٩٤ - ١١٥٦م)، وقد عين من قبل الرهبانية البندكيتة رئيسا لديرها فى "كلونى" عام ١١٢٣م، وقام بنشاط كبير فى تصنيف الكتب فى الرد على علماء الجدل المسلمين "وكان راعيا لأول ترجمة لاتينية للقرآن الكريم، كما كان هو نفسه صاحب جدلية طائشة ضد الإسلام"(٢).

وإذا كانت جهوده، من تأليف حول موضوعات إسلامية وترجمة لعلوم المسلمين، تضيفه إلى قائمة المستشرقين، فإن أهدافه من وراء ذلك كله - كما صرح هو بها - تجعله بالدرجة الأولى مبشرا يتخذ الاستشراق وسيلة لخدمة أهداف التنصير، فهو إذ يبرر أمره بترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية يقول - فيما يحكى عنه "ساذرن" -: " إن القرآن منبع الزندقات، وسبب الحركات الهدامة التى تهدد كيان المسيحية، فإذا أريد القضاء عليه، فلابد من دراسته، والدعوة إلى أنه كتاب تعارُض وتضارب وتناقض، وأن ما فيه يرفضه العقل"(٣).

---

(١) لمعرفة تراجم هؤلاء : انظر ، الأستاذ العقيقى : المستشرقون ج ١ص ١١٠ ، ١١١ .

(٢) الأستاذ طيباوى : المستشرقون الناطقون بالإنجليزية .. ملحق بكتاب الفكر الإسلامى الحديث للدكتور محمد البهى ص ٤٧٦ ، وانظر : المستشرقون للأستاذ نجيب العقيقى ج ١ ص ١١٢ .

(٣) نقلا عن الدكتور عرفان عبد الحميد : المستشرقون والإسلام ص ١٢ .

وهو كذلك حين يبرز جهوده فى ترجمة علوم المسلمين، يصرح بأنه "إذا كان هذا العمل يبدو من النوافل الزائدة.. فإنى أرد بأن فى بلاد ملك عظيم، تكون بعض الأشياء للدفاع، وبعضها للزينة، وبعضها لكليهما معا.. وكذلك الحال مع هذا العمل، فإذا لم يكن بالإمكان تنصير المسلمين به، فمن حق العالِم على الأقل أن يساند إخوانه الضعفاء فى الكنيسة الذين يسهل افتضاحهم بأشياء صغيرة" (١).

ولم يكن دور "بطرس" هذا ليتوقف عند حدود الدعوة إلى النصرانية، والسعى لإدخال العالم فى إنجيل المسيح – كما يقول – وإنما تجاوز ذلك إلى تأليب الأوروبيين لشن غاراتهم الكبرى على المسلمين، وهى الغارة التى عرفت باسم الحروب الصليبية، فحين عقد مجمع "كلير مون" عام ١٠٩٥م برئاسة إربانيوس الثانى وهو كلونى فرنسى، ودعا فيه بطرس الناسك إلى الحروب الصليبية، فأقره المجمع عليها، وأعدت فى سبيلها ثمَاني حملات" (٢) ويروى " ديورانت" قصة مؤداها أن بطرس هذا " قد حمل إلى أربان الثانى من "سمعان" بطْريق "أورشليم" رسالة تصف بالتفصيل ما يعانيه المسيحيون فيها من اضطهاد، وتستغيث به لينقذهم"(٣). وأكثر من هذا، لم يكتف بطرس بدور المحرض على حرب المسلمين، بل قاد بنفسه جيشا قوامه اثنا عشر ألفا، وسار بهم إلى الأراضى المقدسة متعجلا حرب المسلمين، إذ كان أربان الثانى "قد حدد بدء الرحيل شهر أغسطس من عام ١٠٩٦م، ولكن الفلاحين القلقين الذين كانوا أوائل المتطوعين، لم يستطيعوا الانتظار إلى هذا الموعد، فسار جحفل منهم عدته نحو اثنى عشر ألفا.. وبدأ رحلته من فرنسا فى شهر مارس، بقيادة بطرس الناسك، وولتر المفلس.." (٤).

وهكذا كشف بطرس الناسك عما يعتمل فى نفوس طائفة الرهبان البندكتيين وغيرهم من طوائف النصارى، من عمق الكراهية للإسلام، والرغبة الجارفة فى القضاء عليه فى كل مكان سواء فى الشرق الإسلامى أو فى الأندلس. وليس أدل على هذه الحقيقة من أن دير "كلونى"، الذى ضم طائفة الرهبان البندكيين، والذى وقف رئيسه بطرس الناسك فى مجمع "كليرمون"

---

(١) الدكتور زقزوق : الاستشراق .. ص ٢٥ .

(٢) العقيقى: المستشرقون ج ١ ص ٥٦ .

(٣) قصة الحضارة ، المجلد الرابع ، الجزء الرابع ، ص ١٢ .

(٤) السابق ص ١٩ .

يحرض على حرب صليبية ضد المسلمين فى فلسطين والشرق الإسلامى، هذا الدير نفسه كان مركزا للحركة التى عرفت باسم حركة التوبة والتكفير عن الذنوب، ومنه "انطلقت حركة تغيير النصرانية الإسبانية بكل كتبها وطقوسها، وجعلها نصرانية كاثوليكية رومية صرفة، وذلك لأن هؤلاء الرهبان رأوا أن النصرانية الإسبانية أصابها الفساد لاكتسابها الكثير من الإسلام؛ ولذلك بدأوا حروبهم الصليبية ضد نصرانية أسبانيا. وبالتالى إسلامها.. (١) وفى هذا الصدد، تمكن القائمون على هذا الدير من تكوين جيش لحرب المسلمين فى الأندلس، وقد نجح هذا الجيش فى الاستيلاء على "طليطلة" قبل عشر سنوات فقط من وصول أول حملة صليبية إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين"(٢) وهكذا كان العداء النصرانى للإسلام يمتد إلى رقعته كلها فى الشرق والغرب.

وعلى درب بطرس الناسك، سار من جاءوا بعده من رجال نسبوا إلى الاستشراق، مع أن الاستشراق لم يكن فى الحقيقة غير مجرد وسيلة لا غنى عنها لاستكمال هويتهم الحقيقية كمبشرين، إن صحت هذه التسمية.

من هؤلاء الرجال الذين لمعت أسماؤهم فى العصور الوسطى، "ألبرت الكبير" و"توماس الاكوينى"، و"ريموند مارتينى" و"روجر بيكون" و"ريموندلل"، و"الأسقف جويستفيانى" وغيرهم ويؤدى تتبع أعمال هؤلاء وجهودهم إلى نفس النتيجة التى رأيناها من قبل، وهى أن الاستشراق لم يكن لينفك عن التنصير خلال هذه الحقبة على الأقل، وإن كان التنصير هو الجانب الأظهر فى شخصيات من نسبوا آنذاك إلى الاستشراق، فقد كان "ألبرت الكبير" (١٢٠٦-١٢٨٠م) من الرهبان الدومينيكيين، كما عين أسقفا على "ريجنز برج" سنة ١٢٦٠م.

كذلك كان توماس الأكوينى ضمن من تلقوا تعليمهم فى دير "مونت كاسينو" للرهبان البندكتيين، ثم قرر الانخراط فى سلك الرهبان الدومينيكيين فى عام ١٢٢٤م، وقد تتلمذ لألبرت الكبير حيث قيل: لولا ألبرت ما وجد توماس. وقد ظل الإكوينى يحاضر فى مدرسة البلاط البابوى زهاء عشر سنوات، وساعد الكنيسة فى تحقيق رغبتها فى القضاء على الرشدية التى

---

(١) الدكتور قاسم السامرائى :الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية ، دار الرفاعى للنشر والطباعة الطبعة الاولى سنة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م ص ٢١ .

(٢) السابق ص ٣٢ .

انتشرت فى باريس "فراح يناضل أبناء الكنيسة وقد انقسموا إلى فريقين على جبهتين، فيدافع عن أرسطو لا حبا له، بل خشية من ابن رشد.. حتى انتصر على الرُّشْدِية انتصارا أدى إلى تحريمها سنة ١٢٧٠م"(١) وكان عنيفا فى حربه لفلسفة ابن رشد، مع أنه قد انتحل آراءه ونظرياته، ونسبها إلى نفسه كما أثبت ذلك أحد الباحثين المحققين(٢) ومع أنه كذلك كان "التلميذ الأول لابن رشد، الشارح الأكبر لأرسطو، ومنه تعلم – كما يقول "رينان" فن شرح فلسفة أرسطو بعد أن كان مجهولاً قبله"(٣).

وقد سرى هذا الحقد الدفين ابن رشد وفلسفته "فى جميع المدرسة الدومينيكية وخاصة عند "ريموند مارتينى" و "ريموندلل" الذين رَأَيَا فى فلسفة ابن رشد دين الإسلام الخالص"(٤). وقد كان "مارتينى (١٢٣٠ – ١٢٨٤م) كما كان الإكوينى" من الرهبان الدومينيكية، وفى طليعة العشرين راهبًا الذين اتقنوا العربية منهم"(٥) ويدل أبرز مؤلفاته من عنوانه (خنجر الإيمان) عن دوره كمكافح فى سبيل الكنيسة ومحارب للإسلام، بل إنه من أجل إتقان هذا الدور تعلم العربية وألف الكتب فى الدفاع عن النصرانية والطعن على الإسلام، وأجهد نفسه داعيًا للتنصير فى أسبانيا وشمال أفريقيا، وقد صور له خياله الجامح أنه قادر على أن يتحدى القرآن الكريم فى فصاحته، وعلى أن يعارضه فيأتى بشيء من مثله، فجاء ما قاله فى ذلك مثيرًا للهزء والسخرية والرثاء، وهذا نموذج لما تفتقت عنه عبقرية ذلك الراهب، وما ولده حقده على الإسلام، يقول فيه: "بسم الله الغفور الرحيم، أعارض من آخر اسمه الدال وأوله الميم، بلسان فصيح عربى مبين، لا يمنعنى منه سيف ولا سكين، إذ قال لى بلسان الإلهام سيد المرسلين: قل المعجزة لا شريك فيها لرب العالمين وفى الفصاحة يشترك كثير كثيرين، يغلب فيها أحيانًا الصالح الطالح والكافر المؤمنين.. فقل يا من اسمه رمند ولقبه مارتين (ريموند مارتين): آه لقوم يقبل الباطل والخرافات كأنها اليقين، وإن كنتم فى شك مما ألهمنا إليه عبدنا يا معاشر المسلمين، فأتوا بحل

---

(١) العقيقى : المستشرقون ج ١ ص ١١٨ .

(٢) هو أستاذنا المرحوم الدكتور / محمود قاسم ، وذلك فى كتابه : ابن رشد ، الفيلسوف المفترى عليه .

(٣) الدكتور قاسم السامرائى : الاستشراق ، ص ٨٨ .

(٤) السابق ، ص ٨٩ .

(٥) العقيقى : المستشرقون ، ج ١ ، ص ١١٩ .

هذه الحجة، وبمثل هذه السورة، وادعوا لذلك إخوانكم من الجن إن كنتم مهتدين"[١] ولا نظن أحدًا ممن لهم علم بالعربية، نحوها وبلاغتها، إلا ويرثى لهذا المسكين الذى صور له خياله المريض أنه بهذه الألفاظ السقيمة والأساليب الركيكة قد ألجم جماعة الإسلام.

إذا تركنا توماس الإكوينى وريموند مارتينى وقد استجلينا فى شخصية كل منهما صفة المستشرق والمبشر معًا، فإننا نلتقى بشخصيتين يعتبران من أبرز شخصيات هذه الفترة، وهما "روجر بيكون" (١٢١٤-١٢٩٤م) و "ريموندلل" (١٢٣٥-١٣١٦) وهما من الرهبانية الفرنسيكانية. وقد كان لكليهما أكبر الأثر على الاستشراق والتنصير معًا، كما يكشف عن ذلك – بالنسبة للدراسات الاستشراقية لديهما – ما خلفاه من آثار فى التأليف والترجمة[٢] أما بالنسبة لجهود كل منهما فى مجال التنصير، فإن ما بذلاه فى هذا السبيل يدل بوضوح على أن التنصير كان الغاية الأساسية، والمحرك الأول لكل عمل قاما به، فحين يتحمس "بيكون" لتعلم لغات المسلمين، تكون خدمة التنصير وحدها هى المثير لهذا الحماس، وقد صور "بريفالت هذا الحماس الشديد لتعلم اللغة العربية وعلوم المسلمين فى قوله: "فروجر بيكون لم يكن إلا رسول علوم المسلمين ومناهجهم لأوروبا المسيحية، وهو لم ين مطلقًا فى إقرار أن الطريق الوحيد لمعاصريه إلى العلم الحقيقى هو تعلم العربية، وتعلم العلوم العربية"[٣] و"بيكون" حين يدعو قومه لدراسة الإسلام وعلوم المسلمين، ويصفها لهم بأنها الطريق الوحيد إلى العلم الحقيقى، فإن هدفه لا يكون الرغبة فى الوصول إلى فهم موضوعى عن الإسلام، وتصحيح تصوراتهم عنه، وإنما يكون هدفه الرد على هذا الدين ودحضه توسلا إلى الهدف الأساسى وهو توسيع رقعة العالم المسيحي، ومع أن "بيكون" قد أعلى ذلك صراحة، فإننا نصادف من الباحثين العرب من يفهم قصد "بيكون" خيرًا من فهمه، فالأستاذ العقيقى يذكر فى هذا الصدد أن دعوة "بيكون" إلى تشجيع تدريس اللغات الشرقية فى جامعات أوروبا، إنما كانت "لأغراض علمية صرف"[٤].

---

(١) الدكتور قاسم السامرائى :الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية ، ص ٩ .

(٢) للوقوف على هذه الآثار انظر : العقيقى : المستشرقون ، ج ١ ، ص ١٢٠ ، و "بريفالت" : أثر الثقافة الإسلامية فى تكوين الإنسانية ، ص ١٥٢ .

(٣) أثر الثقافة الإسلامية فى تكوين الإنسانية ، ص ١٥٣ .

(٤) المستشرقون ، ج١ ، ص ١١٨ .

والعجيب أن ما يذهب إليه هذا المفكر العربى – أو المستشرق كما أحب هو لنفسه – يتعارض مع ما حكاه عن "بيكون" أحد المستشرقين الأوروبيين، وهو "ساذرن" الذى يصفه بأنه "كان يرى أن التنصير هو الطريقة الوحيدة التى يمكن بها توسيع رقعة العالم المسيحى، ولا بد – فى رأيه – من توفر شروط ثلاثة لبلوغ هذا الغرض، أحدها: معرفة اللغات الضرورية، وثانيها: دراسة أنواع الكفر وتميز بعضها من بعضها الآخر، ثالثها: دراسة الحجج المضادة حتى يمكن دحضها"(١).

هذا، وقد ضمن "بيكون" أهدافه من تعلم لغات المسلمين رسالة وجهها إلى البابا مبينًا أهمية تعلم لغات المسلمين لغرض التنصير، وكذلك أهمية "دراسة أحوال من يراد ردتهم لتسهيل معرفة المسارب التى منها يمكن النفاذ إلى عقيدة المسلمين لهدمها وتقويضها"(٢).

وإذا كان "روجر بيكون" لم يعش حتى يشهد نتيجة المساعى الكثيرة التى بذلها لتحقيق خطته فى حرب الإسلام والمسلمين عن طريق تعلم لغاتهم، ودراسة أحوالهم، وعقيدتهم، فإن "ريموندلل" (١٢٣٥-١٣١٤م) قد حمل بعده عبء هذه الخطة و"بذل قصارى جهده لإثارة اهتمام الكنيسة والملوك بتعليم اللغات الشرقية فى جامعات أوروبا(٣)" حتى كللت مساعيه بالنجاح حين أقر البابا "كليمنى الخامس" فى مؤتمر فيينا "إنشاء الكراسى للعبرية والعربية والكلدانية، فى أربع الجامعات الرئيسية بأوروبا، وهى: باريس، وأكسفورد، وبولونيا، وطمنكه، ثم فى جامعة خامسة بالبلاط البابوى"(٤).

ولسنا بحاجة إلى التأكيد على أن أهداف "لل" من كل جهوده فى هذا السبيل، إنما كان تحقيق أهداف التنصير، أو بتعبير "رودى بارت" "إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام واجتذابهم إلى الدين النصرانى"(٥).

---

(١) الدكتور محمود زقزوق : الاستشراق ، ص ٢٧ وما بعدها .

(٢) الدكتور عرفان عبد الحميد : المستشرقون والإسلام ، ص ١٣ .

(٣) الاستاذ العقيقى : المستشرقون ، ج١ ، ص ١٢٢ .

(٤) السابق : نفس الموضع .

(٥) الدكتور محمود زقزوق : الاستشراق ، ص ٨٨ .

وحين تحقق حلم "ريموندلل" ومن قبله "بيكون" بإنشاء الكراسى للغات الإسلامية فى الجامعات الأوروبية، ظن "لل" أن الوقت بذلك قد حان لإخضاع المسلمين عن طريق التنصير، وأنه بإقرار هذه الخطة قد زالت – كما يقول يوهان فوك – العقبة الكبيرة التى تقف فى طريق تحويل الإنسانية كلها إلى العقيدة الكاثوليكية(١).

لقد سعى "لل" سعيًا حثيثًا – كما رأينا – إلى إدخال لغة المسلمين إلى أشهر الجامعات الأوروبية لهدف كان منذ البداية عدائيًّا تخريبيًّا، كما قرر ذلك الكثير من الباحثين(٢) كما قام بنفسه منصرًا فى بلاد المسلمين، كذلك وضع "لل" خطة عمل للتنصير بين المسلمين، لا زالت إلى وقتنا الحالى دليلاً لجميع العاملين فى هذا الميدان، إذ آثر – كما يقول زويمر – التبشير بالمحبة والعلم بدلاً من أسلحة الصليبيين: التعصب والسيف لأن نصارى القرن الثالث عشر – على رأيه – ما كانوا يحبون المسلمين، بل لم يفهموا دينهم، كما دعا إلى إنشاء مدارس تبشيرية، وإعداد رجال مدربين لهذا الغرض(٣).

وفضلاً عن كل ما سبق، لم يكن "ريموندلل" – كما صوره زويمر "داعية للتبشير بالمحبة والعلم، بدلاً من أسلحة الصليبية: التعصب والسيف"، وإنما كان فى الحقيقة داعيًا ملحاحًا لحرب المسلمين، إذ أتحف البابا فى عام ١٢٩٥ "بمذكرة عن الإجراء المطلوب لقتال المسلمين، ثم أصدر فى سنة ١٣٠٥ كتابه الذى حوى بالتفصيل أفكاره وعرض منهجًا يصح ممارسته من الناحية العلمية. إذ ينبغى على المبشرين الذين نالوا حظًّا كبيرًا من التعليم أن يبذلوا كل جهد للظفر بالمسلمين، وسائر الكنائس المسيحية المنشقة والملحدة، على أنه لابد فى الوقت ذاته من إعداد حملة مسلحة، وينبغى أن يتولى قيادتها ملك محارب(٤)" وأشار "لل" إلى ضرورة توحد الطوائف الدينية الحربية تحت قيادة من يتولى أمر هذه الحملة، واقترح لهذه الحملة أن تقوم بطرد المسلمين من إسبانيا، ثم تعبر أفريقيا، وتتحرك على امتداد الساحل، إلى تونس، ثم إلى

---

(١) السابق : نفس الموضع .

(٢) انظر: الأستاذ طيباوى : المستشرقون الناطقون بالإنجليزية ، ص ٤٧٦ ، و"رنسيمان" تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٧٢٤ .

(٣) انظر: الدكتور السامرائى : الاستشراق ، ص ٩٣ ، و"رنسيمان" تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٧٢٤ .

(٤) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٧٢٤ .

مصر، كما أوصى بحملة بحرية تستولى على "مالطة" و"رودس" ومرفأيهما، ثم آثر بعد ذلك أن تأخذ الحملة البرية وجهتها إلى القسطنطينية فتنزعها من اليونانيين، ثم تمضى فى سيرها عبر بلاد الأناضول. وقد قدم "ريموندلل" نصائحه فى كل ما يهم هذه الحملة من حيث التنظيم والمؤن الغذائية، والمواد الحربية، والنصائح التى يجب أن يتزود بها المبشرون الذين يرافقونها.

وكان "لول" بخطته تلك – فى نظر "رنسيمان" – نادر الذكاء واسع الخبرة، على الرغم من أنه – فى رأيه – قد اتسم بالتعصب الكريه فيما يتعلق بمشاعره تجاه المسيحيين الشرقيين(١).

وقد عبر "لول" عن أمنية عزيزة عليه، وهى أنه يمكن ضم الخوارج النساطرة، وأن ينتصر "الثأر" على المسلمين، وبين أن ذلك لو تم لأمكن القضاء على جميع المسلمين بسهولة(٢).

تلك هى الروح التى سيطرت على الفكر الغربى كله خلال العصور الوسطى، وهذه هى المشاعر التى شكلت الأساس الحقيقى لإقبال من أقبل آنذاك من مفكرى الغرب على دراسة الإسلام، ولغاته، وتاريخه، وحضارته، ومهما حاول باحث أن يتلمس فى نتائج هذه الفترة شيئًا مخالفًا لهذه الروح لدى غير من ذكرنا من مفكرى الغرب، فإنه سوف يجد محاولته تتحطم فى كل مرة على صخرة الحقد الكريه، والتعصب المقيت، والتخطيط المتعمد لتشويه صورة الإسلام والمسلمين، والرغبة الجامحة فى القضاء عليهم.

ولسنا نشك – ولا نظن أن أحدًا يشك – بعد ما عرفنا، أن أية دراسة تكون مدفوعة بمثل هذه الروح، لا يمكن، ولا يحق لها، أن تدعى لنفسها حقًّا فى وصف الموضوعية والروح العلمية.

والآن.. وقد وقفنا على السمات التى تميز النتاج الاستشراقى، وتعرفنا على الخلفيات السياسية والدينية والحضارية التى أحاطت به فى أول أطواره، نريد أن نقوم بمحاولة أخرى للبحث عن الموضوعية من خلال ما أثر عن مستشرقى العصور الوسطى من آراء ودراسات، وذلك هو موضوع المبحث التالى.

---

(١) انظر : السابق ، ص ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، ويلاحظ أن "رنسيمان" – وهو مستشرق معاصر – ينفر من تعصب "لول" الكريه فيما يتعلق بمشاعره تجاه المسيحيين الشرقيين ، دون أدنى إشارة منه إلى تعصبه البغيض ضد المسلمين ورغبته الجامحة فى تدميرهم .

(٢) انظر : الدكتور قاسم السامرائى : الاستشراق ، ص ٩٣ .

د. الفكر الاستشراقي ومكانه من الموضوعية:

مما لا شك فيه – بعد ما تقدم – أن أى جهد يبذل للبحث عن الموضوعية فى كتابات المستشرقين خلال العصور الوسطى، سيكون عديم الجدوى، فالناظر فى هذه الكتابات لن يصادف إلا الإساءة المتعمدة إلى الإسلام، والتضليل المقصود فى فهمه، فقد كان هم الكتاب آنذاك – وهم كما رأينا من رجال الكنيسة – مقصورًا على نشر الافتراءات والأكاذيب حول الإسلام ونبيه ﷺ، قصدًا إلى دحر هذا الدين من جهة، وتعمية لحقيقته على المواطن الأوروبى من جهة أخرى، فالإسلام آنذاك، كان يمثل – كما يقول "ساذرن" " مشكلة بعيدة المدى بالنسبة إلى العالم النصرانى فى أوروبا على المستويات كافة فباعتباره مشكلة عملية، استدعى الأمر اتخاذ إجراءات معينة، كالصليبية، والدعوة إلى النصرانية، والتبادل التجارى، وباعتباره مشكلة لاهوتية، تطلب – بإلحاح – عديدًا من الإجابات على عديد من الأسئلة فى هذا الصدد، وذلك يقتضى معرفة الحقائق التى لم يكن من السهل معرفتها، وهنا ظهرت مشكلة تاريخية صار من المتعذر حلها، كما ندر إمكانية تناولها دون معرفة أدبية ولغوية يصعب اكتسابها، وصارت المشكلة أكثر تعقيدا بسبب السرية والتعصب والرغبة القوية فى عدم معرفتها خشية الدنس"(١).

وهكذا كان الإسلام فى نظرهم مشكلة، ولكنه مشكلة لا يراد فهمها، ولا توجد لديهم أية رغبة فى مواجهتها على حقيقتها مواجهة علمية "خشية الدنس" والشيء الخبيث أو الدنس لا يوصف إلا بأشنع الصفات، ومن هنا كان الإسلام فى رأيهم "من عمل الشيطان، وكان القرآن الكريم نسيجًا من السخافات، وكان محمد ﷺ دعيًا كذابًا، ومحتالاً، وعدوًّا للمسيح، أما المسلمون فهم ليسوا سوى نوع من المتوحشين، لا يكاد يحظى بميزة إنسانية"(٢).

وقد حوت انشودة "رولاند " الشيء الكثير من هذه الشناعات، ففيها وصف المسلمين بأنهم يعبدون ثالوثًا مؤلفًا من "محمد (ﷺ) و"أبولون" و"تيرفاجان" وأنهم كذلك عباد أصنام(٣)،

---

(١) الدكتور محمود زقزوق : الاستشراق ، ص ٢١ .

(٢) الأستاذ طيباوى : المستشرقون الناطقون بالإنجليزية ، دراسة ترجمها الأستاذ فتحى عثمان ونشرت ملحقة بكتاب الدكتور محمد البهى : الفكر الإسلامى الحديث ، ص ٤٧٥ .

(٣) انظر: الدكتور محمد غلاب : نظرات استشراقية ، ص ٩ ، والدكتور محمود زقزوق : الاستشراق : ص ٢٢ .

وقد تضمنت قصيدة "أورشيلم وصف دقيقًا لتمثال زعم أنه صنع للنبى (ﷺ) من الذهب والفضة الخالصين، وأن قاعدته تمثال فيل أصعد النبى فوقه"(١).

ومما صور به الرسول ﷺ كذلك فى كتابات هذه الفترة أنه كان كردينالا طمع فى كرسى البابوية، فلما خابت آماله، انشق على الكنيسة، وادعى النبوة، ووصف كذلك بأنه لص، وقاتل، وزير نساء وكافر، وساحر ودجال، إلى غير ذلك من الصفات التى لم يوصف إنسان بأشنع منها، أما الإسلام فقد صورته تلك الكتابات بأنه قوة خبيثة شريرة، وأنه مزيج مشوه تجمع من أصول نصرانية ويهودية تلقاها الرسول ﷺ من أساتذته، أحبار اليهود ورهبان النصارى وقسسهم، وأنه كذلك – كما أعلن بطرس الناسك – منبع الزندقات، وأن خبث هذا الدين فى رأيه – يفوق كل خبيث يمكن أن يتصور المرء.

والقرآن الكريم – عند مستشرقى هذه الفترة – ليس إلا كتاب تناقض وتضارب وتعارض، يهدم بعضه بعضًا، ولا ينسجم فى أفكاره، وكل ما فيه مخالف للعقل، عائق للفكر"(٢). ويمثل هذا النوع من الأحكام المجافية للموضوع العلمية، والتى لم تصدر إلا عن هوى وعصبية، المجافية للموضوعية العلمية، والتى لم تصدر إلا عن هوى وعصبية، امتلأت مؤلفات الكتاب الغربيين فى تلك الفترة، وهى أحكام لا يزال بعضها يتردد فى الكتابات الاستشراقية حتى يومنا هذا، كما سنرى ذلك فيما بعد.

وإذا قارنا بين هذه الأفكار وما كتبه من قبل عن الإسلام نصارى الشرق فى الدولة البيزنطية، لتبين لنا أن هؤلاء الأخيرين كانوا النموذج الذى حذا حذوه الغربيون، إذ نهجوا فى حديثهم عن الإسلام نفس النهج، ونسجوا على نفس المنوال، فهذا – مثلاً – "ثيوفانيز المعترف" أول مؤرخ بيزنطى (توفى سنة ٧١٨م) يصنف كتابه "حياة النبى" (ﷺ) – وهو الكتاب الذى قدر له، كما يقول "فون جرونيباوم" أن يكون مرجعًا مهمًّا لمن تلاه من الكتاب – فماذا يقول فيه؟.. إنه يقول: "فى هذه السنة (عام العالم ٦١٢٢ من بدء الخليقة، المقابل عام ٦٣٢م) توفى محمد (ﷺ) حاكم العرب ونبيهم، بعد أن عين قريبه أبا بكر (رضي الله عنه) خليفة له، وفى نفس الوقت كان

---

(١) انظر غلاب : نظرات استشراقية ، ص ١٠ .

(٢) للوقوف على كثير من هذه الافتراءات انظر الدكتور غلاب : نظرات استشراقية ، ص ٩ ، ١٠ ، والدكتور عرفان عبد الحميد : المستشرقون والإسلام ، ص ٦ وما بعدها، والدكتور زقزوق : الاستشراق ، ص ١٠.

الخوف مستوليا على الجميع، وعند بداءة ظهوره، ظن العبرانيون الضالون أنه المسيح الذى كانوا يتوقعون ظهوره، لذلك انضم إليه بعض كبارهم، وتقبلوا دينه، وهجروا دين موسى الذى كلم الله جهرة، والذين فعلوا ذلك كانت عدتهم عشرة، وقد لازموه حتى لقى نهايته، ثم عدلوا عن رأيهم عندما رأوه يأكل لحم الجمل، إذ أدركوا أنه ليس ما ظنوه أولا، فتحيروا ولم يعرفوا ماذا يصنعون، وخاف التعساء من الارتداد عن دينه، فرمونا نحن المسيحيين بتهم السلوك غير المشروع، وواصلوا مناصرته"(١).

وهكذا يجد القارئ نفسه أمام نوع من الأحكام موغل فى الافتراء، ظاهر التناقض والسطحية، عار عن أى سند من تاريخ أو رواية، ولو كان الأمر على غير ذلك لدلنا هذا القسيس المحنق على المصادر التى استقى منها تلك الترهات، فهل عين النبى ﷺ قريبه أبا بكر – كما يزعم – خليفة له؟ وهل كان أبو بكر ﷺ أقرب إلى النبى ﷺ من على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وهو ابن عمه الذى حماه من بطش قريش، وهو كذلك زوج ابنته؟ وإذا كان قد حدث هذا، ففيم كان اختلاف المسلمين – مهاجرين وأنصارا – فى يوم اجتماع السقيفة، وهو الاجتماع الذى قدم فيه المسلمون أروع مثل لتطبيق مبدأ الشورى الإسلامى فى اختيار الحاكم، حيث عرض كل فريق من المهاجرين والأنصار فى هذا "المؤتمر"، بكامل حريته، وجهة نظره كاملة،وشرح الأسباب التى تظهر أحقيته بالخلافة، ولم تنعقد الخلافة لأبى بكر ﷺ، إلا بعد أن بايعه سائر المهاجرين والأنصار، فهل كانت تخفى على "ثيوفانيز" هذا أخبار ذلك المؤتمر الذى انتهى إلى اتفاق عام على بيعة الصديق ﷺ؟ وهل كان أهل الكتاب، ولاسيما اليهود، بعيدين عن هذا المؤتمر الذى تردد صداه فى جنبات المدينة، وقد كانوا يقاسمون المسلمين سكناها؟ فكيف، وهم ألد أعداء الإسلام، لم يسجل أى منهم مثل هذا الافتراء الذى يزعمه "ثيوفانيز"؟ أم أن الحقيقة أن "ثيوفانيز" كان يسير على نفس الخطة التى تكشفت من بعد عند خلفه، وهى الكتابة عن الإسلام دون الرجوع إلى أية مصادر؟ كما قد اعترف بذلك "جيبير النوجنتى" إذ صرح " بأنه لا يعتمد فى كتاباته عن الإسلام على أية مصادر مكتوبة" وأنه لا يوجد لديه أية وسيلة للتمييز بين الخطأ والصواب"(٢).

---

(١) جرونيباوم : حضارة الإسلام ، ترجمة الأستاذ عبد العزيز توفيق جاويد ، نشره مكتبة مصر ١٩٥٦م ص ٦٦ .

(٢) الدكتور محمود زقزوق : الاستشراق .. ص ٢٢ .

ولنستمع إلى "ثيوفانيز" فى موضع آخر، يواصل أكاذيبه المتعمدة، فيقول عن النبى ﷺ أنه "قد اختلط فى فلسطين باليهود والمسيحيين، وبواسطتهم حصل على بعض الكتب المنزلة، وأصيب كذلك بمرض عصبى.. فلما أن علمت زوجته بأمره، حز فى نفسها أنها، وهى العريقة الأصل، قد أصبحت اليوم مرتبطه بإنسان لا يتقصر أمره على أنه فقير، بل هو أيضا مريض (كذا...) فراح يهدئها بقوله: إنى تلم بى رؤية ملك من الملائكة اسمه جبريل، ولما كنت لا أقوى على تحمل مرآه، فانى تخور قواى، وأقع على الأرض، وكان يقيم بتلك النواحى راهب كان قد نفى لكفره، واتخذته صديقا، فأخبرته خديجة بكل شيء، كما أبلغته باسم الملاك، وأراد هذا الراهب أن يقنعها تماما، فقال لها: لقد قال الصدق، فما ذلك الملاك إلا الناموس الذى ينزل على النبيين كافة، حتى إذا قبلت خديجة أقوال الراهب الزائف وصدقتها، أعلنت لنساء عشيرتها الاخريات أن زوجها نبى، وهكذا انتشر الخبر. فبلغ أولا أبا بكر الذى جعله فيما بعد خليفة من بعده، وانتهى الأمر بأن استطاعت شيعته (أو قل فرقته المارقه) (كذا..) أن تحصل بالقوة (أو كما قال ثيوفانيز بالحرب) على السيادة على منطقة يثرب"(١).

لقد تضمن هذا النص عددا من المطاعن التى ساقها كاتبها عارية عن أى دليل أو سند تاريخى، وإذا كانت تلك هى طريقة العصور الوسطى التى كان أبناؤها يعيشون كما يقول هويزنجا – "فى أزمة عقلية مستمرة، فلم يكونوا يستغنون لحظة واحدة عن أحكام خاطئة من أغلظ نوع" (٢) وإذا شاء عقلهم "معرفة طبيعة شيء أو سببه، فإنه لا ينظر فيه لتحليل تركيبه، ولا يتعقبه للبحث عن أصله ومصدره، ولكنه يرفع بصره إلى السماء حيث يلتمع ذلك الشيء كفكرة.." (٣) – أقول إذا كانت هذه هى طريقة العصور الوسطى وطبيعتها فى إطلاق الأحكام دونما تحليل لها، أو بحث عن أصلها ومصدرها، فإنه يكون مؤسفا حقا أن يعاود المستشرقون فى العصور الحديثة ترديد نفس هذه الأحكام فى مؤلفاتهم. وسوف نرى فيما بعد أن الكثير من المطاعن والأحكام التى تضمنها كلام "ثيوفانيز" قد وجدت لها مكانا فى دراسات بعض المستشرقين المحدثين، فالقول بأن محمد ﷺ قد أخذ ديانته ومعارفه عن اليهود والنصارى، وأنه

---

(١) جوستاف جرونيباوم : حضارة الإسلام ... ص ٦٧ .

(٢) اضمحلال العصور الوسطى .. ص ٢٢٩ .

(٣) السابق ص ٢٠٩ .

كان يعانى من مرض عصبى أو نفسى، وأنه تعلم على راهب مطرود من الكنيسة، وأنه صلى الله عليه وسلم كان من فرقة مارقة، وأنه نشر دينه بالحرب، كل ذلك وغيره مما هو نتاج العصور الوسطى وعقليتها البدائية الساذجة - كما وصفها - هويزنجا - ما زال يتردد فى الفكر الاستشراقى إلى عصرنا هذا. وهذا موضوع سنعرض لتفاصيله فى القسم الثانى من هذه الدراسة.

وعلى درب "ثيوفانيز" ومن بعده، كتب "نيكيتاس" البيزنطى كذلك محاولا أن يثبت خطأ بعض المعارف الواردة فى القرآن الكريم، لا بوساطة النقد التاريخى - كما يقول "جرونيباوم" - بل بمقارنة نص من القرآن (الكريم) بما ورد فى الكتاب المقدس، فينكر مثلا أن يكون إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قد قاما ببناء الكعبة كما أخبر بذلك القرآن الكريم، لا اعتمادا على سند تاريخى، وإنما على أساس أن مؤرخ سفر التكوين الشديد التدقيق - كما يقول - "لا يذكر أى شيء مطلقا عن إقامة ذلك الأب الكبير لهذا البيت"(١).

كذلك ينكر "نيكيتاس" الطريقة التى روى بها القرآن الكريم قصة أهل الكهف وينتقد النبى ﷺ بشده، لإقدامه على قص القصة، ولروايته إياها - كما يزعم - بتلك الطريقة الغامضة، ويذكر أنه ﷺ تظاهر بتجاهل التفاصيل. وأنه قد ذكر هذه القصة لسببين أحدهما: إظهار العلم بكثير من الكتب المنزلة، وثانيهما: رغبته فى استخدام المعجزة التى منحوها لمصلحة تعاليمه(٢).

إن الهدف من إيراد مثل هذه الدعاوى ليس هو الرد عليها، وبيان تهافتها، فذلك أمر قد نهض له الكثير من الباحثين، إنما المراد من ذلك التأكيد على أمرين، أحدهما: افتقاد البحوث والتأليف، فى هذه الفترة للموضوعية، وكل مقومات الروح العلمية، وثانيهما: أن الرؤية الغربية للإسلام فى العصور الوسطى، "قد استمدت موادها الأولية من مصادر تاريخية بيزنطية شرقية، وإسبانيا لاتينية، مع ما أضيف إليها من خبرات مباشرة تولدت خلال الحروب الصليبية"(٣).

ومما يؤكد هذه الحقيقة، أن واحدا من مشاهير الكتاب الغربيين فى هذه الفترة، وهو "بطرس لومبارد المتوفى سنة ١١٦٠م قد ألف كتابا اسماه "الجمل" وجمع فيه كل ما شجر فى

---

(١) جرونيباوم : حضارة الإسلام ... ص ٣٠ .

(٢) للوقوف على الكثير من مثل هذه المزاعم أنظر ، جرونيباوم : حضارة الإسلام ... ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٣) الدكتور عرفان عبد الحميد : المستشرقون والإسلام ص ٥ .

زمنه من مجادلات، فإذا علما أنه قد "كان لديه ترجمة يستعملها لما كتبه القديس يوحنا الدمشقي"(١). وعلمنا كذلك أن هذا الأخير، كان يتناول الإسلام على أنه فرقة نصرانية مارقة ويتحدث عن محمد ﷺ باعتبار أنه متنبئ ظهر بين العرب، فى أيام الامبراطور هرقل " وأنه اطلع على كتب العهد القديم والجديد، ثم ما لبث بعد أن اتصل براهب من أتباع "آريوس" أن أسس نحلته، وقد استطاع بالتظاهر بالتقوى أن يكتسب قلوب قومه، ثم أخبرهم بعد ذلك أن كتابا مقدسا قد أنزل إليه من السماء.. وقدم إليهم الفرائض المضحكة التى وضعها فى ذلك الكتاب قائلا: أنها شريعتهم المقدسة"(٢).

إذا علما كل ذلك، ازداد يقيننا – من جهة – بأن نصارى الشرق، سواء فى ذلك من عاشوا بين المسلمين، وفى دولتهم، ومن كانوا تابعين للدولة البيزنطية، هم الذين وضعوا الأساس الأول لتصورات الغربيين، ومواقفهم من الإسلام.

فإذا أضفنا إلى ذلك، أن مثل هذه الكتب، المشوهة لحقائق الإسلام، والتى استمدت أفكارها عنه مما كتبه نصارى الشرق، قد ظلت متداولة بين الغربيين – كما يقول "اوليرى" – حتى القرن السابع عشر(٣)، فإنه يتبين لنا من جهة ثانية أن ما تعرض له الإسلام من مطاعن وافتراءات، لم يكن سمة خاصة بتلك المرحلة المبكرة من تاريخ الاستشراق، وإنما أخذ شكل اعتقادات ثابتة وحقائق مسلمة، ظل الأوربيون يتوارثونها جيلا بعد جيل، ويتضح كذلك – من جهة ثالثة –أن نتاج الغربيين فى هذه الفترة، قد جاء – فيما يتعلق بالإسلام والمسلمين – خاليا تماما عن كل ما يمكن وصفه بالموضوعية.

ومن الغريب أن بعض الباحثين قد أداهم اجتهادهم إلى تصور بعض مظاهر الموضوعية فى كتابات أو مواقف بعض المستشرقين فى هذه الفترة، ومن هؤلاء على سبيل المثال، الدكتور محمود زقزوق الذى يقول فى ذلك: "ويمكن القول بصفة عامة بأنه قد كان هناك فى هذه الفترة المبكره للاستشراق اتجاهان مختلفان فيما يتعلق بالأهداف والمواقف إزاء الإسلام، أما الاتجاه

---

(١) اوليرى : الفكر العربى ومكانه فى التاريخ .. ص ٢٨٣ .

(٢) جرونيباوم : حضارة الإسلام ... ص ٦٥ ، ٦٦ وقارن بين كلام يوحنا هذا وكلام "ثيوفانيز" السابق وكذا ما سبق من أقوال بعض مستشرقى العصور الوسطى لترى كيف انتقلت نفس الأفكار والإدعاءات من نصارى العرب إلى نصارى بيزنطه ثم إلى نصارى الغرب .

(٣) أنظر ، أوليرى : الفكر العربى ومكانه فى التاريخ .. ص ٢٨٣ .

الأول، فقد كان اتجاها لاهوتيا متطرفا.. وأما الاتجاه الثانى، فقد كان نسبيا بالمقارنة إلى الاتجاه الأول، أقرب إلى الموضوعية والعلمية، ونظر إلى الإسلام بوصفه مهد العلوم الطبيعية والطب والفلسفة.." (١).

ومثار الغرابة من هذا القول أن صاحبه قد بناه على أساس ما قام به "بطرس" الموقر، رئيس رهبان دير "كلونى" والمتوفى سنة ١١٥٦، وهو تشكيل "جماعة من المترجمين فى أسبانيا يعملون كفريق واحد، من أجل الحصول على معرفة علمية، وموضوعية عن الدين الإسلامى" (٢).

وكما يبدو لنا، فإن هذا القول يتضمن – دونما حاجة إلى اعمال فكر – نقض ما ذهب إليه صاحبه، من أن هذه الفترة شهدت ظهور اتجاه أقرب إلى الموضوعية والعلمية، لأنه هو نفسه يقرر أن الهدف مما قام به "بطرس" هذا وفريقه من المترجمين إنما هو "الحصول على معرفة علمية موضوعية عن الدين الإسلامى" فكأن هؤلاء بنص كلامه، قد كانوا – على أشد الاحتمالات تفاؤلا – طلاب معرفة بهذا الدين، والفارق كبير بين شخص أو أشخاص يريدون المعرفة، وآخرين يمكن وصفهم بالموضوعية، الأولون يندرجون فى شريحة "المتعلمين" والأخرون لا يكونون إلا من العلماء، فالموضوعية فى الحقيقة وصف لعالم بالنظر إلى أحكامه وموافقه، وليست سلوكا لطالب علم، فما رآه الاستاذ الدكتور ليس كذلك فى رأينا. ولعله أدرك هذه الحقيقة، إذ عاد فقرر أن هذه الموضوعية التى كان يبحث عنها "بطرس" الموقر "لم تكن موضوعية بالمعنى الصحيح، وإنما يمكن أن تعد (موضوعية موجهة إن صح التعبير" (٣) مع أنا لا نعلم للموضوعية تنوعا بين (موضوعية بالمعنى الصحيح) و (موضوعية موجهة)، فالموضوعية إما أن تكون بالمعنى الصحيح، أو لا تكون موضوعية على الإطلاق، كذلك لا يمكن الفصل فى عمل ما بين موضوعيته والهدف منه، فإذا كان الهدف معروف سلفا أنه غير علمى – كما هو واضح فى أعمال "بطرس" وآرائه – فإن الموضوعية تنتفى عن العمل النابع عنه.

فإذا علمنا أن بطرس هذا كان قد حكم مسبقا على الإسلام بأنه "هرطقة نصرانية" وأنه كان يقصد من وراء جهوده فى الترجمة "أن يساند إخوانه الضعفاء فى الكنيسة الذين يسهل افتضاحهم بأشياء صغيرة" (٤)، وأنه حين طلب من "روبرت أوف كيتون" ترجمة القرآن الكريم،

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية ... ص ٢٦ .
(٢) السابق ص ٢٤ .
(٣) السابق ص ٢٥ .
(٤) السابق ، نفس الموضع .

برر ذلك – كما يقول "ساذرن" بأن القرآن "منبع الزندقات، وسبب الحركات الهدامة التى تهدد كيان المسيحية، فإذا أريد القضاء عليه، فلابد من دراسته، والدعوة إلى انه كتاب تعارض وتضارب وتناقض، وأن ما فيه يرفضه العقل"(١).

إذا علمنا ذلك وعلمنا أيضا أن "روبرت كيتون" وأمثاله، قد ساعدوا على تحقيق هذا الهدف، بما قدموه للقرآن الكريم من ترجمات بدت فيها الإساءة المتعمده، والتحريف المقصود، حيث أهملت هذه الترجمات ألفاظ "إسلام" ومسلمين و "أسلم" وتسليم ونحوها، او حرفتها؟ فأعطت كلمة "مسلمين" – مثلا – معنى "الاسماعيليين" أو "السرسان". وهكذا حذف هؤلاء من القرآن الكريم "ما شاءوا، وأدخلوا فى الترجمة ما شاءوا عمدا، فجانبوا الأمانة، ولحقتهم الخيانة.. واعتمد المدافعون عن النصرانية على هذا القرآن وعلى أمثاله من الترجمات المسوخة، وفسروها كما شاء لهم هواهم، فكان "بطرس" المحترم، وبيدر، وباسكال، وريكولدو بخاصة، واللاتين بعامة قد سمحوا لأنفسهم أن يفهموا القرآن بطريقة ترضيهم هم، فكانوا يفضلون تفسيرهم للقرآن على تفسير المسلمين له، ويرفضون تفسير المسلمين كما يقول "دانيال".. (٢).

إذا علمنا كل هذا، كان لنا أن نجزم بأن هذا العمل الذى قام به "بطرس" وأصحابه، لا يصح أن يوصف بالموضوعية، ولا يصح أن يؤخذ بالتالى دليلا على ظهور اتجاه موضوعى لدى الغربيين فى هذه الفترة، ولا على أن هؤلاء قد نظروا إلى الإسلام "بوصفه مهد العلوم الطبيعية والطب والفلسفة.

إن مثل هذه النظرة الأخيرة إلى الإسلام كانت أبعد ما يكون عن عقل الأوربيين آنذاك، كيف وما زال الكثيرون منهم – حتى فى هذا القرن – يلحون على نفى كل صلة للإسلام والعرب بهذه العلوم، ولا تبعد نظرتهم للعرب والمسلمين عن مجرد كونهم قنطرة عبرت عليها هذه العلوم إليهم من أسلافهم الإغريق والرومان(٣) وقد عبر "اوليرى" عن هذا المعنى فى قوله: "إن ما نسميه

---

(١) الدكتور عرفان عبد الحميد : المستشرقون والإسلام ص ١٢ .

(٢) الدكتور قاسم السامرانى : الاستشراق .. ص ٦٣ .

(٣) لقد ألح " رينان" ومن بعده "ليون جوتيبه" وغيرهم على بيان ضعف العقلية العربية وعجزها عن انتاج أى فكر فلسفى ، كما قد بين ذلك الأستاذان : الدكتور= =مصطفى عبد الرزاق فى كتابه تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ، والدكتور إبراهيم مدكور فى كتابه : فى الفلسفة الإسلامية . وأنظر ، كتاب "جوتيبه" مدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية . وأنظر كذلك مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية ، الذى أصدرته المنظمة العربية للتربية والثقافية والعلوم سنة ١٤٠٥ – ١٩٨٥م ، الجزء الأول، الفصل السادس "الفلسفة" ص ٣٠٧ وما بعدها .

القرون الوسطى ليحتل مكانا هاما فى تطور أحوالنا الثقافية، التى هى مدينة بكثير للثقافة المنقولة التى جاءت من الهيلينية القديمة خلال أوساط سريانية وعبرية وعربية"(١).

فالفلسفة والعلم ونحوها من فروع الثقافة الإسلامية، لم تكن – فى رأيه – "من عمل العبر إلا فى حالات قليلة جدا"(٢) "أما فى الطب فإن المنهج الهندى كما يجب ان نذكر، قد جئ به إلى جند نيسابور، ثم أضيف إلى النهج الإغريقى، ولكن الأخير كان واضح التغلب(٣)، ويعود "أوليرى" إلى تأكيد هذه الفكرة بالنسبة لعلوم الفلسفة والطب، فيذكر أن علم الطب "يأتى بعد الفلسفة الحقيقية من حيث كونه تراثا تسلمه العالم العربى من الهلينية(٤)" أما الكيمياء العربية، فإنها فى رأيه "تعيد عرض ما قام به الكيميائيون الإغريق فى الاسكندرية"(٥).

ليس من هدفنا هنا أن نناقش مثل هذه الدعاوى التى أسس عليها "أوليرى" كتابه المذكور، والتى سبقه إليها أمثال "رينان" و "جوتييه"، فذلك أمر ستعرض له – بإذن الله – فى القسم الثانى من هذه الدراسة، لكن الذى نقصد إليه هنا، هو بيان أن هذه الروح التى تنكر على العرب والمسلمين كل أصالة وابتكار فى الفلسفة والعلوم المختلفة – إذا كانت تحتل مكانا بارزا فى الفكر الاستشراقى فى العصور الحديثة، فإنها لا يمكن أن تكون فى العصور الوسطى قد نظرت إلى الإسلام بوصفه مهد العلوم الطبيعية والطب والفلسفة.

إن الأمر – كما تثبت كتاباتهم آنذاك – يبدو على عكس ذلك تماما، فإن نظرة هؤلاء للإسلام قد أسست – كما يقول "رودى بارت" على "أن هذا الدين المعادى للنصرانية، لا يمكن أن يكون فيه خير"(٦).

وعلى هذا، فإن عنايتهم الزائدة بترجمة كتب العلوم الطبيعية والطب والفلسفة ونحوها، إنما كان باعثها اعتقادهم بأنها علوم أسلافهم اليونان والرومان، وأنها مقطوعة الصلة تماما بهذا

---

(١) الفكر العربى ومكانه فى التاريخ ص ٢١ ، صدر فى لندن سنة ١٩٢٢م ، وترجمه الأستاذ : الدكتور تمام حسان سنة ١٩٦١م .

(٢) السابق : ص ١١٨ .

(٣) السابق : ص ١٢٤ .

(٤) السابق : ص ١٣١ .

(٥) السابق : نفس الموضع .

(٦) الدكتور: زقزوق : الاستشراق .... ص ٢٥ .

الدين الجديد. وقد أوضح ذلك "مكسيم رودنسون" فى قوله عن تلك الفترة: "ولا يصادف المرء موقفا موضوعيا، إلا فى مجال مختلف لا يمت إلى الدين الإسلامى إلا بصلة بعيدة، وأعنى العلم بأوسع معانيه"(١).

فاحتفاء الغربيين – آنذاك – بعلوم الطبيعية والفلسفة ونوها – ترجمة ودرسا وتمحيصا – قد قام على أساس أنها مجال مختلف عن الإسلام، ولا يمت إليه إلا بصلة بعيدة(٢). إذ أن هذا الدين المعادى للنصرانية لا يمكن، فى رأيهم، أن يكون فيه خير، وأن خبث هذا الدين – كما صرح بذلك جيبير النوجنتى – يفوق كل سوء يمكن أن يتصوره المرء(٣)، وهم كذلك قد أباحوا لأنفسهم أن ينسبوا إلى الإسلام كل ما يمكن أن تشوه صورته فى نظر مواطنيهم، دونما حاجة إلى الرجوع إلى أية مصادر مكتوبة، كما قد اعترف بذلك "جيبير النوجنتى"(٤).

ولقد كان "النوجنتى هذا (ت ١١٢٤م) باعترافاته تلك، نموذجا حقيقيا لطبيعة المفكر الأوروبى فى العصور الوسطى، ومعبرا بشكل واضح عن جميع السمات التى ميزت العقلية الأوروبية آنذاك، وهى السطحية، والضعف، والطيش، وعدم الدقة وسرعة التصديق، وإصدار التعميمات على أساس التأمل الخاطئ، كما سبق بيان ذلك.

والنتيجة التى تخلص إليها مما سبق، هى أن اقبال مستشرقى العصور الوسطى على علوم المسلمين ومصنفاتهم فى الطبيعيات والطب والفلسفة ونحوها، لا يدل بحال على ظهور اتجاه موضوعى فى الدراسات الاستشراقيه فى هذه الفترة، ولا يقوم على نظرتهم للإسلام باعتباره مهد هذه العلوم.

وليس مما يصح الاستدلال به فى هذا المجال كذلك، ما ذكره الأستاذ نجيب العقيقى فى تأكيد الموضوعية لدى غالبية المستشرقين ومحاولة إقامة الدليل على ذلك، إذ يقرر أن غالبيتهم قد "اتخذت الاستشراق علما قائما بذاته، وجوزيت عليه بما جوزى العلماء قديما من ضر فى أكثر

---

(١) السابق : ص ٢٣ .

(٢) وهذه الصلة – كما تشهد بذلك أقوالهم – لا تعدو أن المسلمين قد ساهموا فى حفظ هذه العلوم حتى نقلت إليهم

(٣) أنظر الدكتور زقزوق : ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٤) السابق : نفس الموضع .

الأحيان، فميخائيل اسكوت، نالته ريبة من ترجمة ابن رشد، وروجر بيكون سجن باعتماده على الفلسفة الشرقية" (١).

والحق أن مثل هذا القول منه ينطوى على الكثير من التمويه ولو أنه صدر عن شخص قليل العلم بالاستشراق والمستشرقين، وبالظروف التى عاشتها أوروبا فى هذه الفترة، لجاز لنا أن نلتمس له الأعذار، لكن صاحبه يعلم يقينا أن شغف أمثال "اسكوت" و"بيكون" وغيرهما، بالفلسفة الإسلامية، لا يدل على أن مواقف هؤلاء من الإسلام والمسلمين كانت تتسم بالحيدة والنزاهة، والروح العلمى، لاسيما إذا علمنا أن الاشتغال بالفلسفة كان يواجه من جمهور المسلمين موقفا، أقل ما يوصف به أنه موقف رفض ونفور، وهو موقف يعلمه الأستاذ العقيقى يقينا ويسجله فى مؤلفه القيم "المستشرقون" وفى ذلك يقول عند حديثه عن "الأندلس" أما الفلسفة والمنطقة والفلك والكيمياء والرياضيات، فقد كانت أحب العلوم إلى الخاصة والمجددين، وأقبحها لدى العامه والرجعيين (٢). وكان الخلفاء من علمائها فريقين: فريق يقربهم ويجزل عطاءهم، ويوليهم كبار المناصب، وفريق وهو الأكبر ينكبهم بإحراق كتبهم واستصفاء أموال، ورجمهم، فيهربون منه إمساكا على حياتهم، وكان فقهاء الأندلس المالكيون حربا على تلك العلوم.. فاحرقت على يدهم كتب خليل بن عبد الملك، وأحياء العلوم للغزالى، ومعظم كتب ابن رشد" (٣).

صحيح أن من ذكرهم الأستاذ العقيقى، قد قاموا بجهود كبيرة فى مجال دراسة العلوم الإسلامية، وترجمتها، فإن ميخائيل اسكوت" قد أشرف على مكتب الترجمة الذى أنشأه "فردريك الثانى" فى صقلية (١٢٢٠-١٢٣٦م)، وهو المكتب الذى بلغت منقولاته من المراجع اليونانية والعربية إلى اللاتينية ثلاثمائة مجلد فى الفلسفة والطبيعيات والرياضيات والكيمياء والطب والحجامه، كما أوفد على رأس بعثه من قبل الامبرطور فردريك الثانى إلى جامعات إيطاليا وباريس واكسفورد، حاملا إليها مؤلفات ابن رشد، وشروحه على مقولات أرسطوا وايساغوجى.

---

(١) المستشرق ، ج ٣ ص ٦٠٤ .

(٢) يعلم الأستاذ العقيقى أن وصف الرجعيين هذا يطلق كثيرا فى كتب المستشرقين على غير معناه الأصلى ، وها هو ينزلق مثلهم فى اطلاقه على أهل السنة من المحدثين ورجال الفقه لاسيما فقهاء المالكيه .

(٣) المستشرقون ج ١ ص ٨٢ .

وصحيح كذلك أن روجر بيكون – ومثله توماس الاكوينى والبرت الكبير – قد اعتمد على فلسفة ابن شينا، وبلغ من إعجابه أن وصفه بانه أكبر عميد للفلسفة بعد أرسطو، كما كان شديد الإعجاب بالكندى إلى حد أن جعله فى كتابه "المرئيات" مع ابن الهيثم، فى مستوى بطليموس(١).

نعم، كل ذلك صحيح، ولو أردنا أن نحصى أسماء المفكرين الغربيين الذين اشتغلوا آنذاك بالفلسفة الإسلامية، لتطلب منا ذلك العديد من الصفحات، لكنه لن يدل فى النهاية على ما أراد الأستاذ العقيقى الاستدلال عليه. ولو أنه عنى بإبراز الحقيقة، لبين لقارئه فى هذا المقام السبب الحقيقى وراء الأذى الذى جوزى به من ذكرهم، كما جوزى به غيرهم من مستشرقى هذه الفترة.

وإذا كان هذا المستشرق "العربى" لم يشأ أن يكشف هنا عن السبب الحقيقى لما أصاب هؤلاء المستشرقين من الأذى، فإن الكثيرين من الغربيين، قد نبهوا إليه وأكدوه، فهذا "أوليرى" يقرر ان الرشدية قد انتشرت من مقرها الحقيقى، وهو جامعة بولونيا وجامعة بدوا "ومن هذين المركزين، انتشر نفوذ ابن رشد، فشمل شمال شرق إيطاليا جميعه، وظل حتى القرن السابع عشر، وكان ذلك بشيرا بالمذهب العقلى، والاحساس المضاد للكنيسة فى أيام النهضة(٢).

فالسبب إذن فى إيذاء من أوذى، واضطهاد من اضطهد من المستشرقين، ليس كونهم تبنوا أحكاما علمية، وآراء موضوعية، فيما يتعلق بنظرتهم للإسلام والمسلمين، بل كونهم تبنوا أفكارا فلسفية تناقض الأفكار التى تبنتها الكنيسة قرونا طويلة، وهو الأمر الذى لم يكن – كما يقول – المؤرخ "لى" –: "اشعارا بثورة عقلية تنبئ بالتمرد، ولكنها كانت مصدرا مثمرا لمصاعب فى المستقبل، إذ أنها بذرت بذور البحث، والاستهانة بالكنيسة(٣) فعلى أساس هذه الأفكار الجديدة بدأ المفكر الاوروبى "يتعقل، ويناقش، ويسأل، وينتقد مواضيع كان ممنوعا عليه مناقشتها.. فبدأ الاجلال الأعمى الذى استمر قرونا طوالا لأحكام الكنيسة وسلطتها يتزعزع(٤).

---

(١) أنظر ، العقيقى : المستشرقون ج ١ ص ٨٧ ، ٧٩ ، ١٠٠ ، ١٠٦ .

(٢) الفكر العربى ومكانه فى التاريخ .. ص ٧٤ .

(٣) أنظر الدكتور / السامرانى : الاستشراق .. ص ٧٧ .

(٤) السابق ص ٧٧ .

وكان على الكنيسة لكى تحافظ على سلطانها أن تقف فى وجه تلك الأفكار والمذاهب الفلسفية الجديدة، وأن تقاومها بكل الوسائل الممكنة، فأخذت "تصم كل من يحاول الخروج على تعاليمها بالهرطقة وتوقع عليه قرار الحرمان وكان على رأس هؤلاء الفيلسوف "ابيلارد" نفسه وتلميذه "بطرس اللمباردى"، وساعد ذلك على ظهور حركات الهرطقة ومحاكم التفتيش وما ترتب عليها من آثار مفجعة من حيث المحاكمة وإحراق من أدانتهم الكنيسة"(١).

وقد أكد جورج كولتون هذه الحقيقة فى كتابه "عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة" وأورد لنا العديد من الأمثلة لأشخاص تعرضوا لاضطهاد الكنيسة بسبب ميلهم للفلسفات الجديدة المضاده لها، ومن ذلك قوله: "لم يكن من السهل أن تتفق آراء أرسطو وفلسفته مع المسيحية فى كثير من النواحى، وكان أقل من ذلك رغبة فى التفاهم أولئك الذين قاموا بترجمة تأليف والتعليق عليها واخصهم ابن رشد الذى كان أكثرهم شعبية فى باريس، ومن ثم حرم مجلس "سينز" دراسة أعمال أرسطو فى الجامعة.. وكرر المندوب الباوى هذا التحريم سنة ١٢١٥م، وفى سنة ١٢٣١م جدد البابا التحريم مرة أخرى"(٢).

لكن هذه القرارات التى تحرم الفلسفة، لم تنجح فى الحيلولة بينها وغزو مدارس باريس، بل واقرارها ضمن مناهج التعليم، رغم صلابة الكنيسة وقسوتها فى مواجهة المشتغلين بها، فقد "أدين" أمورى دى بين".. ويحتمل أنه أحرق سنة ١٢٠٧م بسبب آرائه الداعية إلى وحدة الوجود، وتم كذلك حرق كتابات داود دى دينانت" وفى نفس الوقت أدين جمع من الطلبة بإعدامهم بواسطة الخازوق أو بإيداعهم السجن المؤبد، وقد أدين فى سنة ١٢٧٧م اثنان أو ثلاثة من خيرة المدرسين الباريسيين المتازين، ويحتمل أنه حكم عليهم بالسجن مدى الحياة، وأحد أولئك المدرسين هو "سيجر دى برابانت"(٣).

ولا نريد ان نسترسل مع "كولتون" فى سرد أسماء من أحرقوا أو سجنوا مدى الحياة بسبب اشتغالهم بالفلسفة، فهذا أمر قد سجله تاريخ العصور الوسطى الأوروبية بتفاصيل أدق وأكثر شمرلا مما يسمح به المقام هنا، ولا نظن أن هناك من ينكر ذلك أو يمارس فيه، وقد كانت كل

---

(١) الدكتور / جوزيف نسيم يوسف فى مقدمته لكتاب "كولتون" عالم العصور الوسطى .. ص ١٩

(٢) عالم العصور الوسطى .. ص ٢٣١ .

(٣) السابق ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

هذه الأحداث المفجعة ناتجة أصلا عن الصراع بين الكنيسة وخصومها الذين بذروا بذور البحث الحر، وخاضوا فى مواضيع كانت قد حرمت الخوض فيها، فزعزعوا من سلطانها والانصياع الأعمى لأحكامها.

وإذا كانت الكنيسة فى هذه الفترة قد عانت من ذلك الصراع مع هذا اللون الجديد من الفكر، فإنها فى نفس الفترة قد قاست من نوع آخر من الصراع، وكان هذا الأخير صراعا على السلطة، وهو الصراع المعروف فى التاريخ باسم الصراع بين الكنيسة والامبراطورية.

وفى ضوء هذا الصراع، يمكن تفسير ما حسبه البعض من باحثينا تعاطفا مع الإسلام، أو ميلا لأهله من جانب "شخصيات أوروبية مستنيرة لها وزنها.. ومن بين هؤلاء القلائل الذين كانوا – فيما يقول أحد الباحثين(١) –: "يتبنون إزاء الإسلام موقفا أقرب إلى الاعتدال، نجد "فردريك الثانى" حاكم صقلية، الذى أصبح امبراطورا لألمانيا سنة ١٢١٥م".

وقد سبق إلى وصف هذا الامبراطور بالميل إلى المسلمين، والحب لهم عدد من مؤرخى المسلمين، ومنهم القاضى جمال الدين بن واصل، الذى يصفه بأنه كان عالما محبا للحكمة والمنطق والطب، مائلا للمسلمين، لأن مقامه فى الأصل ومرباه، بلاد صقلية، وغالب أهلها من المسلمين. كذلك وصفه المقريزى بالعلم والتبحر فى علوم الهندسة والحساب والرياضيات، وذكر أنه كان بينه وبين الملك الكامل مراسلات علمية(٢).

والحق أن من يقرأ تاريخ هذا الامبراطور ويقف على طبيعة حياته، ويستجلى مشاعره، ويتعرف على طموحاته وآماله، سوف يتبين أنه شخصية لم تعرف الحب لشيء آخر غير ذاتها، ولا الميل إلا لما يخدم أهدافها، شخصية يمكن أن تعارض الكنيسة وتعاديها، بل تعادى النصرانية كلها، وتنتهك أحكامها وقوانينها إذا بدت لها هذه عقبة فى طريق أحلامها، ويمكن أن تظهر الميل للمسلمين، والانعطاف إليهم، والإعجاب بهم وبحضارتهم عندما ترى ذلك محققا لهدفها المنشود، ولا مانع لديها من أن تقلب لهم ظهر المجن حين يبدو لها أن ذلك هو الوسيلة الأجدى فى تمهيد الطريق إلى غاياتها.

---

(١) هو الدكتور محمود حمدى زقزوق فى كتابه : الاستشراق .. ص ٢٦ .

(٢) أنظر الدكتور : سعيد عاشور : الحركة الصليبية .. الطبعة الرابعة ، الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٢م ج ٢ ص ٩٥٣ .

وليست هذه أحكام تطلقها جزافا على هذا الامبراطور، وإنما نتبعها بما يدل على صحتها، مما سطره عنه الباحثون من بنى جنسه، وما سجلته عن حياته كتب التاريخ، ولسوف نكتفى هنا بالإشارة إلى جوانب ثلاثة من حياة هذا الرجل، وجميعها يؤكد ما ذكرنا عنه.

الجانب الأول: ويتعلق بطبيعته وصفاته: وفى هذا الجانب يذكر المستشرق "رنسيمان" أنه "برغم ألمعيته وعبقريته، لم يكن مقبولا، إذ اشتهر بالقسوة والاثره والمكر، لا يعتبر صديقا يصح الوثوق به، فإذا كان عدوا فلا يرحم ولا يغفر"(١) ويكشف "رنسيمان" عن جانب من أخلاقه حين يقرر أن "ما انغمس فيه من المبادئ الشهوانية بجميع أنواعها، تعتبر صدمة، حتى عند المستويات المنحله فى الشرق الفرنجى "(٢) وهل هناك أدل على ذلك أكثر من ذلك الشجار الذى وقع بين الامبراطور، وصهره الملك يوحنا بسبب ما علمه الأخير من "ابنته الباكية، أن زوجها راود احدى بنات عمها عن نفسها"(٣).

كذلك كان القدر ونكث العهود خلقا بارزا فى شخصية فردريك الثانى، فقد غدر بصهره الملك يوحنا، وأخلف وعدا كان قد وعده إياه عند الزواج من ابنته "يولندا وهو أن يظل وصيا على عرش مملكة بيت المقدس حتى وفاته، فقد انتهز الامبراطور أول فرصة واتته، ليعلن أنه لم يعد مطلقا بأن يظل يوحنا وصيا على عرش مملكة بيت المقدس، بل أنه أمر عساكره أن ينتزعوا من "يوحنا" المال الذى أوصى له به الملك "فيليب أغسطس" لينفقه لمصلحة بيت المقدس، وأكثر من ذلك ما كان من غدر الامبراطور بزوجته "يولندا" فبعد أن أنجبت له ولدا – يكون صاحب الحق الشرعى فى مملكة الصليبين بالشام – أرسلها إلى حريمه الذى اتخذه فى "بالرم" وتركها تعيش فى عزلة حتى ماتت ولما يمضى على زواجها منه أكثر من ثلاثة أعوام(٤).

ولا يتسع المقام لذكر كل ما رواه المؤرخون من ألوان الغدر التى ارتكبها هذا الامبراطور بأقرب المقربين إليه، فلنتركها لنتعرف على الجوانب الأخرى فى شخصية ذلك الرجل الذى ظن به الميل للمسلمين والحب لهم(٥).

---

(١) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، المجلد الثانى ص ٣١٢ .
(٢) السابق ، نفس الموضع .
(٣) السابق ص ٣١٣ .
(٤) أنظر "رنسيمان" تاريخ الحروب الصليبية ، المجلد الثالث ، ص ٣١٠ ، ٣١٤ ، والدكتور سعيد عاشور : الحركة الصليبية .. ج ٢ ص ٩٥٨ وما بعدها .
(٥) لمعرفة المزيد من قصص القدر التى ارتكبها ، أنظر "ديورانت" قصة الحضارة الجزء الرابع من المجلد الرابع ص ٢٩٤ ، "رنسيمان" تاريخ الحروب الصليبية ، المجلد الثالث ص ٣٢٢ .

الجانب الثانى: ويتصل بطموحات وأهدافه، وفى هذا الجانب نجد أنفسنا أمام رجل لا نهاية لطموحه إلا بانتزاع سلطان الكنيسة والباب كلية، ووضع هذا السلطان فى قبضته، كائنة ما تكون وسيلته لتحقيق هذه الغاية، وفى سبيل ذلك دخل فى صراع مرير مع الكنيسة والبابوية، وكان هو بطل الدور الثالث من أدوار الصراع الذى نشب فى هذه الفترة بين البابوية والامبراطورية المقدسة، وكان "السبب الحقيقى الذى يكمن وراء ذلك النزاع فى جميع أدواره هو مبدأ السمو والتنافس بين السلطتين الكنيسة والعلمانية حول سيادة العالم، فأيهما اسمى البابا أم الامبراطور؟ وأيهما يجب أن يكون له الكلمة الأولى فى العالم الغربى – السلطة الكنسيه أم السلطه الزمنيه؟(١).

وقد عبر رنسيمان عن هذا الطموح حين ذكر أن الامبراطور فردريك الثانى قد "اعتبر نفسه خليفة الله على الأرض.. لم يسمح لنفسه أن يخضع لما يمليه أسقف من الأساقفة ولو كان أسقف روما ذاتها"(٢). وحين أكد أن فريدرك قد "جعل من نفسه ملكا مستبدا على نحو ما ألفه الرومان والبيزنطيون، فكان مصدر القوة والقانون، وولى الله فى أرضه"(٣).

الجانب الثالث: من الجوانب التى تبرز فى شخصية "فردريك الثانى" هو موقفه من الدين بشكل عام، ومن الدين الاسلامى على وجه الخصوص، وفى هذا الجانب يكشف لنا ما كتبه المؤرخون الأوروبيون عن رجل لا يأبه بالديانات السماوية جميعها، فهو كما صوره معاصروه "مفكر حر، اعتبر كل الديانات متشابهة من حيث كونها لا تساوى شيئا، وقد نسبوا إليه مقالة قال فيها: ان العالم قد أصابه الأذى من مدعين ثلاثة هم: موسى، وعيسى، ومحمد(٤).

وبالنسبة لعقيدته النصرانية، يذكر "رنسيمان" أن فردريك الثانى" كان يميل إلى إثارة معاصريه بما يلجأ إليه من تعليقات فاضحة عن الديانة والأخلاق.. وأنه لم يسمح لنفسه أن يخضع لما يمليه عليه أسقف من الأساقفة، ولو كان أسقف روما ذاتها.. (٥)

---

(١) د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٥٠

(٢) تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٣١٢ .

(٣) السابق ج ٣ ص ٣٢١ .

(٤) اوليرى : الفكر العربى ومكانه فى التاريخ ص ٢٨٥ .

(٥) تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٣١٢ ، ٣١٣ .

أما بالنسبة للدين الإسلامى، فقد شاع بين بعض الباحثين من الغربيين والمسلمين الاعتقاد بأنه كان ميالا إليه، ومتعاطفا مع أهله، محبا لهم، لكن هذا الاعتقاد يتهاوى – فى نظرنا – تماما حين نسمع من فردريك هذا عبارات التهكم والسخرية بالإسلام والمسلمين بعد أن وصل إلى هدفه المنشود بخداعه ودهائه ومكره، وتظاهره بحب المسلمين والولاء لهم، إذ تمكن بمثل هذه الوسائل من امتلاك الأماكن المقدسة، وإعادتها إلى العالم النصرانى دون أن يحتاج فى ذلك إلى توجيه ضربة واحده، أو إراقة قطرة دم(١) وحين وصل إلى هدفه هذا ظهرت عواطفه الحقيقية نحو الإسلام والمسلمين فيما تفوه به من عبارات يحمل بعضها التهكم والسخرية بالمسلمين، ويذكرنا بعضها بتلك العبارات التى قالها بعده بعدة قرون، الجنرال "غورو"، إذ قال هذا الأخير عندما وقف أمام قبر صلاح الدين الأيوبى، بعد نجاح الغرب فى استعمار الكثير من البلاد الإسلامية: "ها، قد عدنا يا صلاح الدين" وهكذا فإن الجنرال "غورو" الذى كان مشربا بنزعة اكليريكية وروح عسكرية غاليه، ذهب إلى الشام (بعد أن نالت فرنسا الانتداب على سوريا ولبنان فى سنة ١٩٢٠م) ليتابع ما تقتضيه هذه السياسة التى ساعده على تنفيذها جهاز الدولة فى فرنسا.. وحقق لنفسه حلما كبيرا، وهو دخول "المدينة المقدسة " فى موكب النصر الذى لم يبلغه أجداده، ولذلك فإنه لم يتمالك من إظهار ما تطوى عليه نفسه من "الحمية الصليبية"، عندما وقف على ضريح صلاح الدين، وقال أمام تلك التجاعيد الراقدة فى خلود الأبد: ها نحن صلاح الدين"(٢).

إن هذا الموقف الذى وقفه الجنرال "غورو" يشبه تماما ذلك الموقف الذى وقفه من قلبه بسبعمائة عام الامبراطور فردريك الثانى، ففى ١٨ فبراير من سنة ١٢٢٩م وقع فردريك الثانى مع السلطان الكامل معاهدة الصلح، وبمقتضى هذه المعاهدة، اتفق الطرفان على الصلح لمدة عشر سنوات، على أن تكون بيت المقدس للصليبين، وكذلك بيت لحم والناصرة، فضلا عن تبنين وصيدا بأكملها، أما بيت المقدس، منها فى أيدى المسلمين منطقة المعبد بما تحتوى عليه من قبة الصخرة والمسجد الأقصى، وللمسلمين الحق فى التردد إليها وحرية العبادة، وإقامة شعائر الإسلام من الأذان الصلاة(٣).

---

(١) أنظر السابق ص ٣٣١ والدكتور سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٦٧ .

(٢) نجيب الأرمنازى : سوريا من الإحتلال إلى الجلاء ، طبع دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٩٧٣ ص ١٩ ، وأنظر التعليقات الورادة بالهامش من نفس الموضع – وأنظر مجلة العربى ، الكويت عدد أغسطس ١٩٧٦م العدد رقم ٢١٣ مقال أحمد بهاء الدين تحت عنوان "نحن نعيش الحرب الصليبية العاشرة" ص ١١ .

(٣) انظر الدكتور سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج٢ ص٩٦٧،"رنسيمان" تاريخ الحروب الصليبية ج٣ ص٣٣٠.

وبعد أن تم للامبراطور بدهائه تحقيق هذا الهدف الكبير الذى "عجزت عنه جهود "ريتشارد" قلب الأسد، بإمكانياته الضخمة، مع ملاحظة أن فردريك حصل على بيت المقدس، دون أن يدخل معركة، أو يخسر رجلا واحدا"(١) – أقول أنه بعد أن تم له ذلك، بدت مشاعره نحو الإسلام والمسلمين على حقيقتها، وأخذ يتفوه بعبارات لا تصدر إلا عن صليبى يسخر من المسلمين ويتهكم بهم، فهو بعد أن تسلم بيت المقدس ذهب يطوف بقية الصخرة، وعندما شاهد ما نقشه صلاح الدين من كتابة حول القبه، تسجل تطهير البناء من الملحدين، تراه يسأل فى ابتسامة ساخرة: من يكون هؤلاء الملحدون !! وحين يلحظ اسياخًا بأعلى النوافذ، فيسأل عنها من بحاشيته من المسلمين، فيخبرونه بأن هذه الأسياخ إنما تثبت لترد العصافير. حينئذ يأتى تعليق فردريك على ذلك بقوله: "والآن قد بعث الله لكم الخنازير، وبذلك يستخدم – كما يقول رنسيمان – اللفظ الدارج الذى يطلقه المسلمون على المسيحيين(٢).

فهل هناك فارق فى المعنى بين عبارته تلك وعبارة "غورو" السابقة؟ وهل يصح لنا بعد ذلك أن نصدق ما يشاع عن فردريك من حب وميل للإسلام والمسلمين؟

لقد نسى فردريك فى نشوة نصر زائفا أثر الصدمة القريه التى أصابته حين خرج من بلاده محروما من الكنيسة مغضوبا عليه من البابوية معتمدا على وعد السلطان الكامل له بإعطائه بيت المقدس لإصلاح مركزه فى الغرب الأوروبى ثم فوجئ بتغير فى موقف الكامل وتبدل الظروف التى دفعت الكامل إلى إعطاء مثل هذا الوعد، ولقد كان إصرار الكامل على موقفه الجديد – لو استقر عليه – ضربه قاضيه لكل آمال الامبراطور وأحلامه ومستقبل عرشه فى الغرب الأوروبى ومصير المعركة بينه وبين البابوية، لذلك لجأ الامبراطور إلى سلاح الحيله "والاستعطاف والتذلل للسلطان الكامل حتى يحكى أنه كان يبكى فى بعض مراحل المفاوضات، ويفسر هذا الشعور رساله أرسلها فردريك الثانى إلى السلطان الكامل الأيوبى ليقول فيها: أنا مملوكك وعتيقك، وليس لى عما تأمره وخروج، وأنت تعلم أنى أكبر ملوك البحر، وقد علم البابا والملوك باهتمامى وطلوعى فإن رجعت خائبا انكسرت حرمتى بينهم..

---

(١) الدكتور / سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٦٧ .

(٢) تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٣٣٥ .

وهذا القدس فهى أهل اعتقادهم وضجرهم، والمسلمين قد اخربوها فليس لها دخل طائل، فإن رأى السلطان أن ينعم على بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقه منه ويرتفع رأسى بين ملوك البحر"[١]. نسى فردريك الثانى كل هذا ليقف أمام نقش صلاح الدين ويخاطب المسلمين بكل تبجح الصليبى وشحاته الأن قد بعث الله لكم الخنازير.

وليس غريبا أن يكتشف المسلمون الذين عاصروه – لكن بعد فوات الأوان – حقيقة هذا الغازى الصليبى الذى خيب مظهره – كما يقول رنسيمان – ظنهم ورجاءهم "واقلقهم ما ردده من ملاحظات عن دينه وعقيدته، إذا أنهم وأبوا على احترام المسيحى الصادق بينما أثار مخاوفهم الفرنجى الذى أحط من قدر المسيحية ووجه تحيات ساذجه إلى الإسلام ولعلهم سمعوا ما ذاع عنه فى العالم من اشارته إلى أن موسى والمسيح ومحمد ليسوا إلا أدعياء، وكيفما كأن الأمر بدأ فريدرك على أنه رجل مجرد من الدين على أن فخر الدين العالم المستنير[٢]. وقع فريسة لسحر فرديك وجاذبيته.. غير أن الورعين من المسلمين سواء، نظروا شذرا إلى كل الحادث[٣]، فالرغبة السافرة بالطبيعة البشرية لا تظفر مطلقا بقلوب الناس[٤].

وقد أشارت الأعمال والتصرفات التى قام بها الامبراطور فيما بعد، دهشة المسلمين والنصارى على السواء "مما جعل المؤرخ "العينى" يتشكل فى صدق عقيدته، ويقول عنه: أنه كان دهريا يتلاعب بالنصرانية" [٥] ويمكننا – بناء على ما سبق – أن نضيف إلى القول السابق، أنه كان كذلك يتلاعب بالمسلمين، وأن نؤكد كذلك قناعتنا بأنه مما يبعد عن الصواب أن يتصور البعض أن هذه الفترة قد شهدت شخصيات أوروبية، بارزة ومستنيرة، مالت إلى الإسلام، ووقفت منه ومن أهله مواقف معتدلة أو أقرب إلى الاعتدال، فها قد سقط أمامنا أشهر نموذج لهذه الشخصيات المزعومة، بعيدا عن الموضوعية والاعتدال، أو عن القرب منهما.

هذا، ويمكننا أن نجعل خلاصة ما انتهينا إليه حول هذا الموضوع فيما يلى:

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ص ٩٩٥ وما بعدها .

(٢) وهو مبعوث السلطان الكامل فى المفاوضات مه فردريك .

(٣) يقصد حادث تنازل الكامل لفردريك عن بيت المقدس .

(٤) رنسيمان .. تاريخ الحروب الصليبية ٣/٣٣٥ .

(٥) الدكتور سعيد عاشور : الحركة الصليبية ٢/٩٧٠ .

أولا: أن اشتغال مفكرى الغرب فى العصور الوسطى بالفلسفة والعلوم المنقولة عن المسلمين، لم يكن مؤسسا أبدا على نظرة هؤلاء للإسلام باعتباره مهد هذه العلوم، كما ظن ذلك بعض الباحثين، وإنما كان أساسه، البحث عما ينفعهم فى حياتهم، وعما ينفعهم كذلك فى مواجهتهم للإسلام.

ثانيا: أن اشتغالهم بهذه العلوم لم يكن مرادا به على الإطلاق تحصيل تصور صحيح عن الإسلام والمسلمين، وإعلان هذا التصور بين مواطنيهم حتى يصح للبعض أن يصف موقفهم بالموضوعية والنزاهة العلمية، وهذا هو ما قرره المستشرق الفرنسى "مكسيم رودنسون" فى قوله: "وبالطبع، أن ما كانوا يبحثون عنه فى المخطوطات العربية، لم يكن إطلاقا تصور الإسلام أو (ما هى حقيقة الإسلام) ولا العالم الإسلامى، بل إن هدفهم كان البحث عن معرفة الطبيعة والعلوم التى ينتفعون بها كالطب والصيدلة والفلسفة والجبر والحساب وفنون الحرب، وما إلى ذلك، ومن ثم ما ينفعهم فى الرد على الإسلام"(١).

وحتى قصدهم إلى الفائدة والمنفعة الخاصة بهم من هذه العلوم، كان بينهم من يعارضه بشدة، لا لشيء إلا لأنه هدف يتوصل إليه من علوم تنسب إلى المسلمين. فهذا "بترارك" يمقت مقتا شديدا" كل علم ينسب (لأولاد إسماعيل) حتى أنه لم يرد أن يشفى بنصائح الطب العربى، ولا التى تحمل أسماء عربية، وقال لأحد أصدقائه: أرجو منك فيما هو خاص بى، ألا تعتمد على عربك، وأن تعدهم كأنهم لم يكونوا، فأنا أمقت هؤلاء القوم.. فلا يمكننى أن أتصور من هو أكثر منهم تخنثا وارتخاء وهجرا.. ولا أكاد أحمل على الاعتقاد بإمكان صدور ما هو صالح عن العرب(٢).

ثالثا: أن ولع بعضهم بالفلسفة الإسلامية لا ينهض دليلا على أنهم تبنوا موقفا موضوعيا بالنسبة للإسلام والمسلمين، لاسيما ونحن نعلم – كما سبقت الإشارة إلى ذلك – أن الاشتغال بالفلسفة فى مجتمع المسلمين لم يكن – على الأقل – أمر مقبولا لدى جمهورهم من الفقهاء والمحدثين، ومن ساروا على طريق السلف.

---

(١) الدكتور قاسم السامرانى : الاستشراق ..ص ٧٨ .

(٢) نقلا عن الدكتور قاسم السامرنى : الاستشراق .. ٧٩ .

نعم، قد يمكن وصف موقف المستشرقين من العلوم الإسلامية أو المنقولة عن المسلمين بالموضوعية، لكن من الزاوية التى تخصهم هم، أعنى بحسب نظرتهم إلى تلك العلوم، واعتبارها الطريق إلى التطور، والسير فى اتجاه النهضة، أما من الزاوية التى تخص الإسلام والمسلمين، فلم يصادفنا دليل واحد أكيد يمكن الاعتماد عليه فى القول بظهور اتجاهات موضوعية بين مستشرقى تلك الفترة.

رابعا: أن اضطهاد من اضطهد من هؤلاء المستشرقين، وتشريد من شرد، وإحراق من أحرق، لم يكن سببه أن هؤلاء قد توصلوا إلى تصور صحيح للإسلام، وأعلنوه لمواطنيهم بنزاهة وتجرد، وإنما كان سببه أنهم تخطو أسوار حمى مقدس، وانتهكوا حرماته، وهتكوا أسراره، حين حاولوا تمزيق قناع لبسته الكنيسة قرونا عديدة فأصابهم ما أصابهم بسبب ما أثاروه من مشاعر وأفكار تعارض أفكار الكنيسة.

خامسا: أنه من غير الصحيح – فى نظرنا – أن يتصور البعض أن هذه الفترة قد شهدت رجالا من الغربيين البارزين الذين مالوا إلى الإسلام ووقفوا منه مواقف معتدلة وأن يتخذوا من فردريك الثانى إمبراطور ألمانيا نموذجا بارزا لهؤلاء الرجال، فقد سقط هذه النموذج البارز لهؤلاء الرجال المزعومين أمامنا بعيدا عن الموضوعية والاعتدال، أو القرب منهما.

وبعد.. فقد طال الحديث – إلى حد ما – عن هذه الفترة، فترة العصور الوسطى، وإنما كان ذلك لسبب مهم، وهو أن جميع الصيغ والتصورات التى تشكلت خلالها عن الإسلام والمسلمين، وكذلك جميع المطاعن والانتقادات التى وجهها المستشرقون لهذا الدين، ولأتباعه، قد تمكنت من الحياة – على نحو ما – خلال عصر النهضة الأوروبية وما أعقبه من عصور.. وكل تصور، أو اتجاه، أو طعن، أو تخطيط معاد للإسلام سوف نصادفه خلال هذه العصور، فإنه يمكن العثور بسهولة على جذوره وأصوله ثابتة مستقرة على أرض العصور الوسطى، كما سنوضح ذلك – بعون الله تعالى – فى القسم الثانى من هذه الدراسة..

٤. خاتمة

والآن.. وقد انتهينا من القسم الأول من تلك الدراسة التى تهدف إلى تبين حقيقة الفكر الاستشراقى ومكانه من الموضوعية، نوجز أهم النتائج التى توصلنا إليها فى النقاط التالية:-

أولا: كشفت النظرة السريعة التى ألقيناها على الدراسات التى قام بها المسلمون للاستشراق والمستشرقين على العموم، أنها رغم كثرتها، لم تصل بعد من حيث الاستيعاب والشمول والإحاطة بجميع الجوانب - إلى المستوى الذى يتناسب وخطورة هذا الموضوع، ونحسب أنها لن تبلغ هذا المستوى، إلا إذا تبنتها هيئات علمية كالجامعات - مثلا - أو رابطة العالم الإسلامى، أو جامعة الدول العربية، أو مراكز البحوث المنتشرة فى الكثير من البلاد الإسلامية، بحيث تسعى هذه الهيئات إلى تفريغ اعداد من الباحثين المتخصصين فى شتى الجوانب التى تناولها المستشرقون فى دراساتهم، ليقوموا بدراستها، كل فى مجال تخصصه، مع حرص هذه الهيئات على أن توفر لهؤلاء الباحثين كل ما تتطلبه هذه الدراسة، وأن ترسم لها هدفا واضحا يسعون لتحقيقه - فرادى أو جماعات - بحيث لا تتضارب جهودهم، ولا تنزلق إلى متاهات التعميم والتكرار والتضارب الذى وقفنا على نماذجه خلال هذه الدراسة.

ثانيًا: أن هذه الدراسات التى قام بها المسلمون للفكر الاستشراقى - بالإضافة إلى ما وقع فيه بعضها من مزالق، كالتعميم والتعارض والتكرار - غالبا ما تشير إشارات عابرة إلى تلك الفترة التى تناولها بحثنا، وهى فترة العصور الوسطى، لتصعد من هذه الإشارات مباشرة، إلى الحديث من الاستشراق والمستشرقين فى التاريخ الحديث والمعاصر، وذلك يؤدى - فى نظرنا - إلى إهمال المقدمات الأساسية والخلفيات الأصلية التى تساعد معرفتها على إصدار أحكام صحيحه على جميع التصورات والآراء التى تبناها المستشرقون خلال العصور اللاحقه لهذه الفترة، إذ أن ما أعلنه المستشرقون المحدثون من آراء، وما وجهوه للإسلام من مطاعن وانتقادات، إنما يرجع، فى معظمه، كما تبين لنا من خلال هذه الدراسة، إلى تلك الفترة التى تعرف فى التاريخ الأوروبى باسم العصور الوسطى، لذلك كان التركيز من جانبنا فى هذه الدراسة على تبين سمات هذه الفترة، ليس فقط من الناحية الدينية والظروف التاريخية والسياسة التى عاشتها أوروبا خلالها، وإنما كذلك من الناحية العقلية التى تعطى بعدا له أهميته فى تفسير آراء الغربيين آنذاك.

ولما كنا نعتقد فى صحة القول بأن "الأشكال النوعية المحددة للمفكر فى أحد الحقب، ينبغى ألا تدرس فقط على ما تكشف عن نفسها فى التأملات اللاهوتية والفلسفية، ولا فى

تصورات العقائد، ولكن تدرس كذلك على ما تبدو فى الحكمة العملية، والحياة اليومية[١] "ونعتقد كذلك" أن الطابع الحق لروح أحد العصور يتكشف فى طريقته فى النظر إلى الأشياء التافهة والعادية، والتعبير عنها، أكثر مما يتجلى فى الاظهارات العليا لمجالات الفلسفة والعلوم[٢] "لما كنا نعتقد بصدق ذلك، كان تركيزنا على التعرف على الكثير من تفاصيل الحياة اليومية لدى الأوروبيين فى العصور الوسطى، وطريقة نظرهم إلى الحياة وأشيائها العادية، حيث تجلت لنا من خلال ذلك كله المثالية البدائية التى تكمن فى قراره كل نشاط عقلى، واتضحت أمامنا صورة العقلية الأوروبية فى العصور الوسطى، وبرزت لنا أهم سماتها، وهى السطحية، والضعف، وسرعة التصديق الساذجة، والميل إلى المبالغة، والخيال النشط الذى يعتقد فى صدق كل مفهوم يعرض نفسه على العقل، والافتقار إلى روح النقد، والانطلاق إلى التعميمات بغير تردد.

ولاشك أن هذه سمات يمكن من خلالها إعطاء تفسير صحيح لما شاع لدى الأوروبيين عن الإسلام فى العصور الوسطى، كما انها تفيد كذلك فى التعرف على احدى سمات النتاج الاستشراقى فى هذه الفترة؟ إذ الفكر مرآة للعقل الذى انتجه.

ثالثًا: وإذا كانت السطحية والسذاجة البدائية، تمثل إحدى خصائص الفكر الأوروبى فى هذه الفترة عموما، والفكر الاستشراقى على وجه الخصوص، فإن الروح العدائى المتعصب، والطابع التنصيرى الغالب، يمثلا كذلك سمتان بارزتان من سمات النتاج الاستشراقى فى العصور الوسطى، وقد استجلينا هذه السمات عن طريق التعرف على حقيقة القائمين على النشاط الاستشراقى فى هذه الفترة، وذلك من خلال وظائفهم الكنيسة، ودورهم كدعاة للنصرانية، أو مبشرين كما يطلق عليهم، وكذلك من خلال تزعمهم الدعوة إلى حرب شاملة ضد الإسلام والمسلمين، وهى الحرب المشهورة باسم "الحروب الصليبية".

رابعًا: أن محاولة البحث عن الموضوعية فى دراسات المستشرقين وكتاباتهم فى هذه الفترة، هى – كما ظهر لنا – محاولة لا جدوى من ورائها، وتلك نتيجة لم نتوغل إليها فحسب من خلال التعرف على جميع الظروف والخلفيات التى أحاطت بالاستشراق منذ مولده، وإنما كذلك من خلال البحوث والدراسات التى خلفتها هذه الفترة من التاريخ الأوروبى.

---

(١) هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ص ٢٢١ .

(٢) رنسيمان .. تاريخ الحروب الصليبية ٣/٣٣٥ .

ولما كان البعض من مفكرى المسلمين قد اتخذ من إقبال بعض المستشرقين فى العصور الوسطى، على علوم المسلمين ومصنفاتهم فى الطبيعة والطب والفلسفة – ترجمة ودرسا – دليلا على ظهور اتجاه موضوعى، فى الدراسات الاستشراقيه خلال هذه العصور، فقد تتبعنا الأسباب الحقيقية لهذا الإقبال من جانبهم على تلك العلوم التى نبغ فيها المسلمون، وانتهينا إلى أن هذا العمل من جانبهم لا يدل بحال على ظهور هذا الاتجاه الموضوعى المظنون، ولا يقوم على أساس نظرتهم للإسلام باعتباره مهد العلوم الطبيعية والطب كما قد ظن البعض ذلك.

خامسًا: أن بعض المفكرين قد حاول كذلك أن يتخذ من ظروف الحياة الأوروبية فى العصور الوسطى، وما شهدته من صراع مرير بين الكنيسة وخصومها، وما أدى إليه هذا الصراع من مآس خطيرة، تمثلت فى اضطهاد بعض الغربيين من المشتغلين بالفكر الإسلامى وتعذيبهم، إلى حد السجن مدى الحياة، أو الاعدام حرقا أو بواسطة الخازوق – أراد أن يتخذ من هذه الظروف دليلا على موضوعية المستشرقين، وتوفر الروح العلمي فيهم، لكنا على قدر سعينا بحثا عن الموضوعية فى نتاج هذه الفترة، لم نصادف دليلا واحدا يقنعنا بصحة مثل هذا الرأى.

سادسًا: انه ليس من المسلم به كذلك – فيما نرى – ما قرره البعض من أن هذه الفترة، قد شهدت شخصيات أوروبية مستنيرة، مالت إلى الإسلام، وتعاطفت معه، ووقفت منه مواقف معتدلة، إذ تبين لنا أن المثل البارز لهذه الشخصيات المشار إليها، وهو الامبراطور فردريك الثانى، كان أبعد ما يكون عن الموضوعية والاعتدال، ولم يكن – كما استقصينا ذلك من تاريخه – غير رجل يسعى بكل الوسائل الممكنة، لتحقيق أهدافه وبلوغ آماله، حتى وإن كان من هذه الوسائل، أن يحط من قدر النصرانية، وأن يوجه – كما يقول "رنسيمان" – تحيات سانجه إلى الإسلام.

ومحصلة ذلك كله أن الفكر الاستشراقى خلال العصور الوسطى لا يصدق عليه – بحسب ما علمنا – وصف الموضوعية، والروح العلمى النزيه وإذا كان عنوان دراستنا هذه يشير إلى البحث عن الموضوعية لدى المستشرقين من حيث وجودها أولا، ثم من حيث مغزاها وحدودها ثانيا، فانا فى هذه الفترة، لم نجد داعيا للبحث عن حدود الموضوعية، إذ هى مرتبطة بوجود الموضوعية أصلا، وقد ظهر لنا أنه – على حسب علمنا – لا وجود فى هذه الحقبة.

تم بعون الله تعالى القسم الأول، ويليه القسم الثانى بمشيئة الله تعالى وتوفيقه.

******

أهم المراجع "مرتبة بحسب المؤلف"

-آدم ميتز: الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، ترجمة الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده المجلد الثانى، نشرة دار الكاتب العربى.

-آرنولد (سيرتوماس) الدعوة إلى الإسلام، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن، والدكتور عبد المجيد عابدين، وإسماعيل النحراوى، ط٣ – النهضة المصرية سنة ١٩٧٠م.

-إبراهيم مدكور (الدكتور): فى الفلسفة الإسلامية، منهج وتطبيقه، الطبعة الثالثة، دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٦م (جزءان).

-أحمد عبد الوهاب: حقيقة التبشير بين الماضى والحاضر، الطبعة الأولى، مكتبة وهبه سنة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

-أحمد محمد جمال (الدكتور): مفتريات على الإسلام، الطبعة الرابعة، رابطة العالم الإسلامى سنة ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

-أوليرى (ديلاى): الفكر العربى ومكانه فى التاريخ، صدر فى لندن سنة ١٩١٢م وترجمة الدكتور تمام حسان سنة ١٩٦١م.

-بابيه (ألبير): دفاع عن العلم، ترجمة الدكتور عثمان أمين، دار احياء الكتب العربية سنة ١٩٤٦.

-بريفالت (روبرت): أثر الثقافة الإسلامية فى تكوين الإنسانية وهو فصول مختارة قام بترجمتها السيد أبو النصر أحمد الحسينى من كتاب بريفالت (تكوين الإنسانية) ط، دار الكتب الحديثة مصر سنة ١٣٧٧هـ-١٩٥٧م.

-البهى (الدكتور محمد): الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى، الطبعة العاشرة، مكتبة وهبه، مصر.

-جاك بيرك: العرب. تاريخ ومستقبل، ترجمة خيرى حماد، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر سنة ١٩٧١م.

-جب (هامتلون) حضارة الإسلام: ترجمة احسان عباس وآخرين، الطبعة الثالثة، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٩م.

-جرانت (أ – ج) وهارولد تمبرلى: أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين، ترجمة بهاء فهمى، نشر مؤسسة سجل العرب، القاهرة سنة ١٩٦٧م.

-جرونيباوم (جوستاف. أ. فون): حضارة الإسلام، ترجمة الأستاذ عبد العزيز توفيق جاويد، والأستاذ عبد الحميد العبادى، العدد الثانى من سلسلة الألف كتاب التى أشرفت عليها وزارة التربية والتعليم بمصر، مكتبة مصر ١٩٥٦م.

-جوانفيل (جان سير دى): مذكرات جوانفيل: القديس لويس، حياته وحملاته على مصر والشام، ترجمة الدكتور حسن حبش، الطبعة الأولى، دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٨م.

-جلال يحيى (الدكتور): عصر النهضة والعالم الحديث، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٩م.

-حسن ضياء الدين عتر (الدكتور): وحى الله: العدد رقم ٢٨ من سلسلة دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامى، رجب سنة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

-ديوارنت (ول): قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، المجلد الرابع (أربعة أجزاء) نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر على نفقة الإدارة الثقافية فى جامعة الدول العربية سنة ١٩٧٥م.

-رنسيمان (استيفن): تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الدكتور السيد الباز العربى، الطبعة الثانية، دار الثقافة، بيروت سنة ١٩٨٠م.

-سعيد عاشور (الدكتور) تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى الجزء الأول دار النهضة المصرية سنة ١٩٧٦م.

-سعيد عاشور: الحركة الصليبية، صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى الطبعة الرابعة، مكتبة الانجلو المصرية سنة ١٩٨٢م.

-(م. م): الفكر الإسلامى: منابعه وآثاره ترجمة الدكتور أحمد شلبى، نشر الانجلو المصرية سنة ١٩٦٢م.

-طيباوى (أ. ل): المستشرقون الناطقون بالانجليزية ومدى اقترابهم من حقيقة الإسلام، دراسة نشرت بمجلة "العالم الإسلامى" عدد يوليو سنة ١٩٦٢م وترجمها الأستاذ فتحى عثمان، ثم نشرت ملحقة بكتاب الدكتور محمد البهى (الفكر الإسلامى).

-عبد الجليل شلبى (الدكتور): صور استشراقية، الطبعة الثانية القاهرة دار الشروق سنة ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

-عبد الكريم عثمان (الدكتور): معالم الثقافة الإسلامية، الطبعة الثالثة، مؤسسة الأنوار للنشر والتوزيع سنة ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

-عدنان وزان (الدكتور): الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر العدد رقم (٢٤) من سلسلة "دعوة الحق" رابطة العالم الإسلامى، عدد ربيع أول سنة ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

-عرفان عبد الحميد (الدكتور): المستشرقون والإسلام، الطبعة الثالثة، المكتب الإسلامى سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

-العقيقى (نجيب): المستشرقون (ثلاثة أجزاء) الطبعة الرابعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٠م.

-الغزالى (الشيخ محمد): دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين...

-غلاب (الدكتور محمد): نظرات استشراقية فى الإسلام، دار الكاتب العربى بالقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار الكاتب العربى.

-قنواتى ولويس غرديه: فلسفة الفكر الدينى...، ترجمة صبحى الصالح وفريد جبر، الجزء الثالث، دار العلم للملايين، بيروت الطبعة الأولى سنة ١٩٦٩م.

-كولتون (جورج جوردون): عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ترجمة جوزيف نسيم يوسف، نشر مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية سنة ١٩٨٣م.

-مايكل هارت (الدكتور): المائة الأوائل، ترجمة خالد أسعد عيسى، وأحمد غسان سبانو، الطبعة الثالثة، دار قتيبه سنة ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

-مجموعة من المستشرقين الذين أسلموا: لماذا أسلمنا ترجمة الشيخ قاسم بن حمد الثانى.....

-مجموعة من الباحثين: مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية (مجلدان) نشرة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مطبعة مكتب التربية العربى لدول الخليج سنة ١٤٠٥ -١٩٨٥م.

-محمد أسد: الطريق إلى مكة، ترجمة عفيف البعلبكى، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٥٦م.

-محمد جمال (الدكتور): مفتريات على الإسلام، الطبعة الرابعة، رابطة العالم الإسلامى سنة ١٤٠٥هـ

-محمد قطب: واقعنا المعاصر، مؤسسة المدينة للصحافة، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧-١٩٨٧م.

-محمد محمد حسين (الدكتور): الإسلام والحضارة الغربية، مؤسسة الراسالة، بيروت، الطبعة الرابعة سنة ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.

-مصطفى خالد، وعمر فروخ (الدكتوران): التبشير والاستعمار في البلاد العربية الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٣م.

-مصطفى السباعى (الدكتور: الاستشراق والمستشرقون.. المكتب الإسلامى، الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

-محمود حمدى زقزوق (الدكتور): الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة سنة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

-محمود قاسم (الدكتور): ابن رشد، الفيلسوف المفترى عليه...

-هويزنجا (يوهان): اضمحلال العصور الوسطى، دراسة لنماذج الحياة والفكر والفن بفرنسا والأراضى المنخفضة، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٨م.

-لاندو (روم): الإسلام والعرب، ترجمة منير البعلبكى، الطبعة الثانية، دار العلم للملايين سنة ١٩٧٧م.

-لوثروب استودارد: حاضر العالم الإسلامى، ترجمة عجاج نويهض، المجلد الأول والثانى، الطبعة الرابعة، دار الفكر سنة ١٣٩٤-١٩٧٣م.

-لين بول (استانلى):الدول الإسلامية، ترجمة من التركية محمد صبحى فرزات مطبعة الملاح بدمشق سنة ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

* * *